باب

فى صفة ندماء الملك

صفة خلق النديم

ينبغى أن يكون نديم الملك معتدل الطبيعة، معتدل الأخلاط، سليم الجوارح والأخلاق، لا الصفراء تقلقه وتكثر حركته، ولا الرطوبة والبلغم يَقْهَره ويُكثر بَوْلَه وبزقه وتثاؤبه ويطيل نومه، ولا السوداء تضجره وتطيل فكره وتكثر أمانيَّه وتفسد مزاجه. فأمّا الدموىّ[1]، فليس يدخل فى هذه الأقسام المذمومة، إذ كان بالبدن إليه[2] حاجة كحاجته إلى تركيبه وسلامته.

(٥٨) آداب النديم فى المزاملة، وعلومه.

ومن حقّ الملك — إذا زامله بعض بِطانته — أن يكون عارفا بمنازل الطريق وقطع المسافة، دليلا بهدايته وأعلامه ومياهه[3]، قليلَ التثاؤب والنُّعاس، قليلَ السُّعال والعُطاس، معتدلَ المِزاج، صحيح البِنْيَة، طيِّبَ المُفاكهة والمُحادثة، قصير الملاومة والملايلة[4]، عالما بأيّام الناس ومكارم أخلاقهم، عالما بالنادر من الشعر والسائر من المثل، متطرِّفا[5] من كلّ فنّ، آخذًا من الخير والشر بنصيب. إنْ ذَكَرَ الآخرة ونعيمَ أهل الجنّة، حدّثه بما أعدّ الله تعالى لأهل طاعته من الثواب، فرغّبه فيما عنده؛ وإنْ ذكر النار، حذّره ماقرّب إليها. فزهّده مرّة، ورغّبه أخرى. فإنّ بالملك أعظم

(١) صـ : الدين.

(٢) الضمير يعود إلى "الدم" المفهوم من قوله "الدموى".

(٣) صـ : ومنازه.

(٤) صـ : قصير الملالة.

(٥) صـ : متصرفا.

الحاجة إلىٰ مَن كانت هذه صفاته وبالحَرَا[1] إذا أصاب هذا، أنْ لايفارقه إلّا عن أمرٍ تنقطع به العصمة وتجب به النقمة[2].

عدة الملك فى خروجه لسفر أو نزهة

ومن حقّ الملك، إذا خرج لسفرٍ أو نُزْهة، أنْ لايفارقه خِلَعٌ للكساء، وأموالٌ للصِّلات، وسِياطٌ للأدب، وقيودٌ للعُصاة، وسلاحٌ للأعداء، وحُمَاةٌ يكونون من ورائه وبين يديه، ومُؤْنِسٌ يُفضى إليه بسرّه، وعالمٌ يسأله عن حوادث أمره وسُنَّة شريعته، ومُلْهٍ يُقَصِّر ليلَه ويُكْثِرُ فوائده.

وعلىٰ هذا كانت ملوك الأعاجم، أوّلُها وآخِرُها.

وأيضا فإنّ ملوك العرب، لم تزل تمتثل هذا وتفعله.

خلال الندماء

ولندماء الملك وبِطانته خِلالٌ يُساوُون فيها المَلِك ضرورةً. ليس فيها نقص علىٰ المَلِك، ولا ضَعَةٌ فى المُلك. منها: اللَّعِبُ بالكُرَة، وطلب الصيْد، والرَّمْيُ فى الأغراض، واللَّعب بالشِّطْرَنج، وما أشبه ذلك.

مساواة الملك للاعبه

ومن الحقّ علىٰ الملك أنْ لا يمنع ملاعبه ما يجب له من طلب النَّصَفَة فى هذه الأقسام التى عَدَدْنَا.

حق الملاعب على الملك

ومن حق المُلاعِب له المُشَاحَّةُ والمُكَالَبة والمُساواة والممانعة[3] وتركُ الإغضاء والأخذُ

(١) فى "القاموس": "الحَرَا الخليقُ. ومنه: بالحَرَا أن يكون ذلك." وفى "الصحاح": ويحدّث الرجُلُ الرجل فيقول: بالحرىٰ أن يكون. [والمعنىٰ هنا أن الملك اذا أصاب رجلا توفّرت فيه هذه الصفات فالأحرى والأجدر والاخلق به أن لايفارقه إلا فى الحالة التى نص عليها المؤلف.]

(٢) سر: "القيمة".

(٣) صر: المعاقة.

من الحقّ بأقصى حدوده. غير أنّ ذلك لا يكون معه بَذَاءٌ ولا كلامُ رَفَثٍ ولا معارضةٌ بما يُزيل حقّ المَلِك ولا صياحٌ يعلو كلامه ولا نُخيرٌ[1] ولا قذفٌ ولا ماهو خارج عن ميزان العدل.

(٦٠) ملاعبة سابور على أمر مجهول

وفيما يُحكى عن سابور أنه لاعب تِرْبا، كان له بالشَّطْرَنج إمْرَةٌ مُطاعَةٌ[2]. فقَمَرَهُ تِرْبُه. فقال له سابور: ما إمْرَتُك؟ فقال: أركبك حتّى أخرج بك إلى باب العامّة. فقال له سابور: بئس موضع الدالّة وضعتُك، فَرِدْ غيرَ هذا. فقال: بهذا جرى لفظى. فأسف لذلك سابور وقام فدعا ببرقع، فتبرقع. ثم جثا لتِربه، فامتنع أن يعلُوَ ظهر الملك، إجلالًا له وإعظاما. فنادى سابور بعد ذلك بسَنَةٍ فى الرعيّة: لا يلعبَنّ أحدٌ لُعْبَةً على حُكْمِ غائبٍ، فمن فعل فَدَمُه هَدَرٌ[3].

فأما إذا كانت المُشَاحَّة على طلب الحق فى هذه الأقسام التى ذكرنا بمعارضة شعرٍ، وتوبيخٍ فى مَثَلٍ ونادرٍ من الكلام، وإخبارٍ عن سوء لَعِبِ اللاعب وتأنيبٍ له، فهذا مما يُخاطَب به المَلِك ويُعارَض فيه. فأما إذا خرج عن هذا، فدخل فى باب الجُرْأَة كما فعل تِرْبُ سابور، فإنّه خطأٌ من فاعله وجهلٌ من قائله وجُرْأَةٌ على ملكه. وليس للرعية الجُرْأَة على الراعى.

(٦١) آداب الملاعبة بالكرة وغيرها

ومن حق الرجُل على المَلِك، إذا ضرب معه بالكرة، أن يتقدّم بدابّته على دابّة

(١) النخير: مدّ الصوت فى الخياشيم. (قاموس)

(٢) أى أنّ هذا التِّرْبَ كانت عادته وديدنه أنْ لا يلعب الشطرنج إلا على إمرة مطاعة. والإمرة المطاعة هى الاستكام.

(٣) روى صاحب "محاسن الملوك" هذه القصة باختصار. (ص ٧٨)

الملك، وصَوْلَجَانه على صولجان الملك، وأن يعمَل جُهده فى أن لا يُبْخَس حظَّه ولا يَفْتُر[1] فى مسابقةٍ ولا مراكضةٍ ولا التقافِ كرةٍ ولا سبقٍ إلى حدّ ونهاية وما أشبه ذلك.

وكذلك القول فى الرِّماية فى الأغراض وطلب الصيد ولعب الشِّطْرَنْج.

لعبة الشطرنج بحضرة عبدالله ابن طاهر

سمعت محمد بن الحسن بن مُصْعَب[2] يقول: "كان لى صديق من بنى مَخْزُوم، وكان لاعبا بالشِّطرنج. فذكرتُه لأبى العباس عبد الله بن طاهر، فقال: أحضِرْه. فقلت للمخزومىّ: تهيَّأْ للقاء أبى العباس. وكان متصرِّفًا كثيرَ الأدب. فغدوتُ به، فدخل. فلما وقعت عين أبى العباس عليه، وقف. فرآه من بعيد، ثم انصرف من غير أن يُكلِّمه. فقال: هذا رجُلٌ من أهل الأدب، فاغْدُ به ولاعِبْه الشِّطْرَنْجَ بحضرتى

(١) صـ: ولا يعين.

(٢) اضطرب اسمُ الأب فى كثير من كتب التاريخ والأدب. فورد فى سـ: "الحسين" وكذلك فى كامل ابن الأثير طبع أوربة ومصر وفى "المحاسن والمساوى" ص ٢١٧. وورد فى صـ: "الحسن" وكذلك فى الأغانى وفى سـ فى موضع آخر [أى فى صفحة ١٥ من هذا الكتاب]. أما الطبرىّ فأورد الاسمين، وفرّق بينهما صاحبُ فهرسه بجعل "محمد بن الحسين" راويا. ولا أدرى من أين له هذه التفرقة، فإن متن الطبرىّ لا يفيدها. والظاهر عندى أنهما شخص واحد.

أولا ــ لأن محمد بن الحسين بن مصعب لم يرد فى الأغانى مطلقا، ولو كان روايا ــ كما يزعم صاحب فهرست الطبرىّ ــ لكان من الراجح وقوع اسمه فى كتاب الأغانى؛

ثانيا ــ لأن ابن الأثير ذكر محمد بن الحسين بن مصعب (فى حوادث سنة ١٩٨) ثم وصفه بأنه ابن عمّ طاهر ذى اليمينين الذى فتح بغداد باسم المأمون. ومعلومٌ أن طاهرًا هذا هو ابن الحسين بن مصعب بلا خلاف. فيكون صاحبنا الذى أشار إليه الجاحظ هو محمد بن الحسن بن مصعب، وإلا لكان عمّه. ومحمد بن الحسن بن مصعب هذا هو الذى أرسله طاهر إلى المأمون بخراسان برأس الأمين بعد قتله ببغداد. فهو من عصبة عبد الله بن طاهر الذى وقعت الحكاية فى مجلسه. وقد كان بصيرا بالغناء والنَّغَم، وكان من المُلَحِّنين. وذلك لأن أبا الفرج الإصفهانى يقول إن الرجل نشأ بخراسان، وينعته بلقب الأمير. (ابن الأثير ج ٦ ص ٢٠١ و ٣٥٦) و(الأغانى ج ٥ ص ٣٨ و ٥٣ و ١٠٢ وج ٩ ص ٦٢ وج ١٤ ص ٩١)

حتّى أُبَوِّرَه[1] وعائِشَه حتّى يخرج إلى باب الهزل والشتيمة[2]. فلما قعدنا. دارت لى عليه ضربةٌ، فقلتُ: خذها. وأنا الغلام البُوشَنْجِىّ[3]! وهو ساكتٌ. ثم دارت لى عليه ضربةٌ أُخرى، فقلتُ: خذها، وأنا مَوْلى مَخْزُوم! فسكتَ. ثم دارت عليه ضربةٌ، فقلتُ: خذها يا ابن مخزوم. فى حِرِمِّ[4] مخزوم! فسكت. وآستأذن لرجلٍ من آل عبد الملك ابن صالح، وكان خاصًّا بأبى العباس، فأمر بالإذن له. فلما دخل الهاشمىّ وقعد، قال [لى] المخزومىّ: ليس فيك موضع شرف ولا عزّ، فأُفاخرُك! أنت بوشنجىٌّ ثَمَنُ دانق! ولكنْ قُلْ لهذا الهاشمىّ يفاخرنى حتّى ينظر ما يكون حاله. فأمّا أنت، فَمَنْ أنت حتّى أُفاخرك؟ فضحك أبو العباس حتّى خَمَصَ[5] برجْلَيْه، وأمر له بخمسمائة دينار وقرّبه وآنسه. (٦٢)

✦

آداب الندماء اذا أخذت الملك سنة من النوم

ومن أخلاق الملك، إذا غَلَبَتْه عيناه، أن ينهض مَن حضره من صغيرٍ أو كبيرٍ، بحركةٍ لَيِّنَةٍ خفيفة، حتّى يتوارى عن قرار مجلسه. ويكون بحيث يقرُب منه إذا آنتبه. ولا يقولَنَّ إنسانٌ فى نفسه: لعلَّ الملك إنْ هَبَّ من سِنَتِه لا يسألُ عنّى. أو لعلَّهُ أن يمتدّ به النوم أو يعرِضَ له شُغْلٌ. فإنّ هذا من أكبر الخطإ.

وقد قَتَل بعضُ الملوك رجُلا فى هذه الصفة.

---

(١) البَوْر الآختبار والآمتحان كالآبتبار. قال فى نقائض جرير والفرزدق (ص ٣٥٤): "وهذا كلّه آبتبارٌ منه للناس ليدعوهم إلى خلعه".

(٢) يظن بعض الجهلة أن هذا اللفظ ليس بعربىّ، لأن بعض المتحذلقين مالوا إلى الشتم لفظا ومعنى، دون أن يتفطنوا إلى الفرق بين الآسم والمصدر. والقاموس وشرحه وكل متون اللغة والجاحظ وأمثاله شهودٌ عدولٌ. وآنظر أيضا شرح القاموس فى مادة هـ ز ل فقد صرح بأنهم اشتقوا الشتيمة من الشتم [وآنظر البيان والتبيين ج ٢ ص ٦]

(٣) إشارة إلى نشأته بمدينة بُوشَنْج من خراسان.

(٤) كلمة مركبة تركيبا إضافيا من كلمتين. وحُذف حرف الألف من الثانية. والمعنى ظاهر. وهو شتيمة. ويضارع ذلك فى حذف الألف، قول العرب: "لَابَ لك" أى لا أب لك، وقولهم: "ويْلُمِّه" (آنظر تاج العروس فى مادة و ى ل). [وآنظر صفحة ١٣٥ من هذا الكتاب].

(٥) أى ضرب الأرض برجليه كثيرا حتى كأنه يبحث فيها.

وليس من الحزم أن يجعل الحكيم للملك على نفسه طريقا، وهو وإنْ سَلِمَ من عَذْل الملك ولائمته لكَرَم المَلك وشِيَمته، قَدَحَ ذلك فى نفس المَلك وٱضطغن عليه. وبالحَرِىّ أنْ لا يَسْلَمَ من عَذْلٍ وتأنيبٍ(١).

✣

إمامة الملك للصلاة

ومن حقِّ الملك ـ إذا حضرتِ الصَّلاة ـ فالملك أَوْلى بالإمامة(٢)، لخصالٍ: منها ـ أنه ٥
٦٣ الإمامُ، والرعيَّةُ مأمومةٌ؛ ومنها ـ أنه المولى، وهم العبيد؛ ومنها ـ أنه أَوْلى بالصلاة فى قرار داره وموطئ بِساطه، ولو حضر مجلسَه أزهدُ الخلق وأعلمُهم.

فإذا قام للصلاة، فمن حقِّه أنْ يكون بينه وبين مَن يصلِّى خلفه عشرةُ أذرع، وأنْ لا يتقدَّمَه أحدٌ بتكبيرٍ ولا بركوعٍ ولا سجودٍ ولا قيامٍ.

وهذا، وإن كان يجب لكلِّ مَن أَمَّ قوما من صغيرٍ أوكبيرٍ أوشريف أو وضيعٍ، ١٠
فهو للملك أوجبُ.

فإذا سلَّم الملك، فمن حقِّه أنْ يقوم كلُّ مَن صلّى خلفه قائما. فإنهم لا يدرون أيريد تنفُّلا(٣) أودخولا أوقعودًا فى مجلسه.

فإن قام لنافلةٍ، فليس من حقِّه أن يتنفَّلوا. لأنهم لايدرون لَعَلَّه أنْ يسبِقَهم أو يقطَعَ صَلاتَهُ لِحَدَثٍ، فيكون يحتاج إلى أن يسبقهم، وهم قِيامٌ يُصَلُّون بإزائه، وهو قاعدٌ. ١٥
ولكن من حقِّه أن يكونوا بحالهم حتّى يعلَموا ما الذى يفعل. فإنْ قعد، ٱنحرفوا إلى حيثُ لا يراهم، فَصَلَّوْا نوافلهم. وإن دخل فى الصلاة، صلَّوْا على مكاناتهم(٤).

---

(١) أنبه تأنيبا: عنفه ولامه. (حاشية فى صـ)

(٢) صـ: بالإقامة.

(٣) فى سـ: "تنقلا" بالقاف، ولكن بقية السياق تدل على أنه بالفاء. ٢٠

(٤) المكانة المنزلة عند مَلِكٍ. (قاموس). وقد وردت هـذه الآداب بزيادة وٱختصار فى "محاسن الملوك" (ص ٧٨)

obeikandl.com

آداب مسايرة الملك (٦٤)

وقد قلنا إنَّ من حقِّ المَلك أنْ لا يبتدئَهُ أحدٌ بمُسايرةٍ. وإنْ طلب ذلك منه من يستحِقُّ المُسايرة، فالذى يُجزئُهُ من ذلك أن يقف بحيث يراه ويتصدّى له. فإنْ أَوْمأَ إليه سايره، وإنْ أَمْسَكَ عن الإيماء، عَلِمَ أن إمساكه هو تركُ الإذْن له فى مسايرته.

ومن حقِّه، إذا سايره أن لا يَمَسَّ ثوبُه ثوبَ الملك، ولا يُدْنى دابَّتَه من دابَّته، ويتوخّى أنْ يكون رأْسُ دابَّته بإزاء سَرْج المَلك، غيرَ أنَّه لا يُكلفه أن يلتفت إليه. ولا ينبغى له أن يبتدئه بكلام.

وإنْ كان لا يثق بِلِينِ عِنان دابَّته حتّى يصرفه كيف شاء ومتى شاء، فالرأْىُ له أنْ لا يسايره. فإنّ فى مسايرته وَصْمَةً عليه وعلى المَلك. أمّا عليه، فإنه يحتاج إلى حركة متواترة يُتعِب بها نفسه ودابَّته، ويَخرُج بها عن حدّ أهل الأدب والمُروءة والشرف. ولعلّه فى خلال ذلك أيضا أنْ لا يبلُغَ ما يريد. وأمّا على المَلك، فإنه وَهْنٌ فى المملكة. لأنّ المَلك، إنْ طلب الصبر عليه وعلى سير دابَّته، كان إنما يسير عند ذلك بسيره. وليس فى آيين[1] المملكة أن يسير الأعظم بسيْرِ مَن هو دونه.

سنة أكابر العجم عند تهيئهم للمسايرة (٦٥)

ولذلك كانت رؤساء الأكاسرة والأساورة والدَّيبَرْبَذ[2] ومُوبَذان مُوبَذ[3] ومن أشبه هؤلاء من خاصّة الملك، إذا هَمَّ الملك بالمسير فى نُزْهَةٍ أو لبعض أُموره، عرضوا دوابَّهم

(١) أُنظر الحاشية رقم ٢ ص ١٩ و ٢٣ و ٣٠ و ٧٧ من هذا الكتاب.

(٢) كلمة فارسية تفسيرها حافظ الكتاب (التنبيه والإشراف للمسعودى ص ١٠٤). والمقصود من الكتاب الكتاب المقدّس عند المجوس. وربما كان الصواب فى هذا المقام: "دبير يد" من كلمتين الأولى فارسية والثانية عربية بمعنى "كاتب اليد". ذلك لأننى لم أعثر فى معجمات اللغة الفارسية على تفسير يوافق ماذهب إليه المسعودى، أللهم إلا أن تكون الكلمة محرفة وتحتاج إلى التثقيف. [وأنظر صفحة ١٦٠ و ١٧٣ من هذا الكتاب].

(٣) أما الموبذ فهو القاضى، وموبذان موبذ هو قاضى القضاة. وموبذ من ألفاظ الفهلوية، وهى اللغة الفارسية القديمة ومعناها القاضى (مروج الذهب جـ ٦ ص ٣٧٥).

علىٰ راضة المَلك وصاحب دوابّه . وكان كلُّ واحدٍ منهم لا يأمَنُ أن يدعُوَ به المَلك للمسايرة والمحادثة ، فيحتاج إلىٰ معاناة دابّتـه لبلادةٍ أو كثرةِ نفورٍ أو عِثار أو جَماح . فيكون علىٰ الملك من ذلك بعضُ مايكره . وكان الرائض يمتحِنُ دابّةً دابّةً من دوابّ هؤُلاء العظماء . فما آختار منها رُكِبَ ، وما نَفِيَ أُرْجِئَ .

وأيضا إنّ من حقّ الملك ، إذا سايره واحدٌ ، أنْ لا تَروث دابّتُه ولا تَبُول ولا تتحصّن[1] ولا تتشغّب ، ولا يطلب المحاذاةَ[2] لسير دابّة الملك ؛ وإن أراد ذلك منعه راكبه .

ما حصل للموبذ أثناء مسايرته لقباذ

وفيما يُحكىٰ عن ملوك الأعاجم أن قُباذ[2] ، بينا هو يسير والمُوبذ يسايره ، إذ راثت دابة المُوبذ وفطِن لذلك قباذ . فآغتمّ المُوبذ بذلك ، فقال له فى كلام بينهما : ما أوّل مايُستدلّ به علىٰ سُخْف الرجل ، أيها الموبذ؟ فقال : أنْ يعلِف دابّته فى الليلة التى يركب فى صبيحتها الملكُ . فضحك قُباذ حتّى آفتر عن نواجذه . وقال : لله أنتَ ! ما أحسنَ ماضمّنتَ كلامك بفعل دابّتك ! وبحقّ ماقدّمك الملوك وجعلوا أَزِمّة أحكامهم فى يدك ! ووقف ثم دعا بدابّة من خاصّ مراكبه ، فقال له : تحوّل عن ظهر هذا الجانى عليك إلىٰ ظهر هذا الطائع لك[3] .

(١) تحصّنَ الفَرَسُ صار حصانا أى إذا تكلّف ذلك . لعلّ المعنىٰ أنّ الفَرَس تثب على الدابّة التى تكون قُدّامها كما يفعل الفحل . لئلا يحدث مثل ماوقع لسلطان مصر قايتباى إذ ركب فى محرم سنة ٨٧٦ ومعه الأتابكىّ أزبك (منشئ الأزبكية) متوجهيْن من القاهرة إلى شبين القناطر . ففى أثناء الطريق شبّ فرس الأتابكىّ على فرس السلطان ورفسه . فجاءت الرفسة فى قصبة ساق السلطان فآنكسرت ، فنزل بشبين وهو فى غاية الألم . واستحضر السلطان محفّة من القاهرة ليعود عليها . (وآنظر التفصيل فى آبن إياس ج ٢ ص ١٢٨)

(٢) معرّب قباد . وفى كتاب "برهان قاطع" أنه بنى مدينتى حُلوان وكازرون . وأقول إن حُلوان هذه هى غير التى بالقرب من القاهرة . وعن ياقوت أنها كانت أكبر مدينة فى العراق بعد الكوفة والبصرة وبغداد وسُرَّ مَنْ رأى . [وآنظر صفحة ١٠٥ من هذا الكتاب] .

(٣) رواها فى "محاسن الملوك" بآختصار . (ص ٨٢ — ٨٣) ، ورواها بالحرف فى "المحاسن والمساوى" (ص ٤٩٦ — ٤٩٧) .

ماحصل لشرحبيل أثناء مسايرته لمعاوية

وهكذا يُحكىٰ عن معاويةَ بن أبى سفيان أنه بينا هو يسير وشُرَحْبِيل بن السِّمْط[1] يسايره، إذ راثت دابّة شُرَحْبِيل، وكان عظيم الهامَة بسيط القامَة. ففطن معاوية برَوْث الدابّة، وساء ذلك شُرَحْبِيل. فقال معاوية: يا أبا يزيد! إنه يقال إن الهامة إذا عظُمتْ، دلّتْ علىٰ وُفور الدماغ وصحّة العقل. قال: نعم ياأمير المؤمنين، إلّا هامتى فإنها عظيمة، وعقلى ضعيفٌ ناقصٌ. فتبسّم معاوية، وقال: كيف ذلك، ولله أنت! قال: لإطعامى هذا النائل أُمّه البارحة مَكُّوكَىْ شعير[2]. فضحك معاوية، وقال: أَفْحَشْتَ، وما كنتَ فاحشًا! وحمله علىٰ دابّة من مراكبه[3].

(١) هو أبو السمح الكندىّ. كان من رجالات معاوية وأركان دولته، وكان يستشيره فى جلائل الأمور ويعوّل عليه فى حلّ المشكلات الجسام. وقد أرسله مع عمرو بن العاص لملاقاة أبى موسىٰ الأشعرىّ فى قضية التحكيم. وكان من قوّاد الجيوش ومن صناديد الفرسان المعدودين، واشترك فى رياسة الجيوش التى فتحت العراق والقادسية وبيسان وأجنادين. وقد طلب من علىّ عليه السلام أن يدفع إليهم قَتَلة عثمان بن عفّان إن لم يكن هو القاتلَ. وهو الذى فتح حِمص ثم تولّاها لمعاوية، وهو الذى قسم منازلها بين أهلها. ومما يحسن ذكره للتعريف بجلالته فى نفسه وقومه أنه اعتزل مع ولده بنى معاوية حينما أطبقوا على منع الصدقة، وقالا لهم: "إنه لقبيح بالحرار[الأحرار] التنقل. إن الكرام يُلزَمون الشبهة فيتكرمون أن ينتقلوا الى أوضح منها، مخافة العار. فكيف الانتقال من الأمر الحسن الجميل والحق، إلى الباطل والقبيح؟ اللهم إنا لانمالئ قومنا على ذلك!" توفى سنة ٤٠ أو سنة ٤٢. (ابن الأثير ج ٢ ص ٢٩١ و ٣٤٨ و ٣٧٤ و ٣٨٧ و ٣٨٩ و ٣٩٠ و ٤٩٤ وج ٣ ص ٢٢٩ و ٢٣٠ و ٢٣٧ و ٢٤٠ و ٢٩٧ و ٣٣٨، والاشتقاق لابن دُرَيْد ص ٢١٨، وتاج العروس فى باب الباء وفى باب اللام)

(٢) اقتديتُ فى هذا الموضع بما فعله فى صفحة ٧٩ طابع كتاب طراز المجالس للشهاب الخفاجىّ فى المطبعة الوهبية بالقاهرة. [وانظر صفحة ١٣١ من هذا الكتاب].

(٣) رواها باختصار فى "محاسن الملوك". (ص ٨٣)، وفى "المحاسن والمساوى" (ص ٤٩٧)-

تحذير

فليتنكّبْ مَن يساير الملوك ما يَقذى أعينهم بكل جُهده. فإن لمسايرتهم شروطا يجب على مَن طلبها أن يستعملها و يتحفّظ فيها. وقلّما حظِيَ أحدٌ بمسايرة مَلك حتّى يكون قبلها مقدّماتٌ يجب بها الحُظْوَة.

تطير العجم من مسايرة الملك المتصلة

فأما نفس المسايرة للملك المُتّصلة، فإن الأعاجم كلها كانت تتطيّرُ منها وتكرهها. وأيضا فإن المَلِك لم يكن يثابر على مسايرةِ أحدٍ من بِطانته بعينه، لمَا كان يعلم من طِيَرتهم من ذلك وكراهتهم له.

ماحصل من صاحب الشرطة وهو يسير بين يدى الهادى

ويقال إن سعيد بن سَلْم(١)، بينَا هو يساير موسى أمير المؤمنين، وعبدُ الله بن

(١) هو سعيد بن سلم بن قتيبة بن مسلم الباهلىّ. كان بمنزلة عظيمة من الهادى ومن الرشيد بعده، وكان يركب معه فى قبة واحدة. وقد استعمله الرشيد على الموصل، ثم على الجزيرة، ثم على أرمينية. فخرج الخزر عليه فهزموه وفعلوا الأفاعيل المنكرة التى لم يسمع بمثلها الناس. فأرسل الرشيد رجلين فأصلحا ما أفسده. ثم ولاه مَرْعَش فأغارت الروم عليها وأصابوا من المسلمين وانصرفوا، ولم يتحرك سعيد من موضعه. وكان ذلك سنة ١٩١.

قال سعيد إن أعرابيا مدحه ببيتين لم يسمع أحسن منهما:

أيا ساريًا بالليل، لا تَخْشَ ضِلّةً! ✲ سعيدُ بن سَلْم ضوءُ كُلّ بلادِ.

لنا مُقرَمٌ أربى على كلّ مُقرَمٍ، ✲ جوادٌ حَتًا فى وجه كل جواد.

فأغفل صلته. فهجاه ببيتين لم يسمع أهجى منهما:

لكلّ أخى مدحٍ ثوابٌ عَلِمْتُهُ، ✲ وليس لمدح الباهلىّ ثوابُ.

مدحتُ ابن سَلْم، والمديحُ مَهَزّةٌ، ✲ فكان كصَفْوانٍ عليه ترابُ.

(ابن الأثير ج ٦ ص ٧١ و ٨١ و ١٠٥ و ١١١ و ١١٢ و ١٤١؛ و"الأغانى" ج ١٧ ص ٣٢ وج ٢١ ص ٢٣٤؛ و"عيون الأنباء" ج ١ ص ١٥٤؛ و"أمالى القالى" ج ٢ ص ٢٧)

مالك[1] [الخُزاعىّ] أمامَه، والحربةُ[2] فى يده، فكانت الريح تَسْفِى التراب الذى تُثيره دابّة عبدالله فى وجه موسىٰ، وعبدُ الله لا يشعُر بذلك، وموسىٰ يحيد عن سَنَن التراب. وعبد الله فى خلال ذلك يلحظ موسىٰ وموضِعَه، فيطلب أن يحاذِيَه. فإذا حاذاه، ناله من ذلك التراب ما يؤذيه. حتّى إذا كثر ذلك من عبد الله، ونال موسىٰ أذىٰ ذلك التراب، قال لسعيد: أما ترىٰ ما نلقىٰ من هذا الخائن[3] فى مسيرنا هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين! والله ما قَصَّرَ فى الاجتهاد، ولكنه حُرِمَ حظَّ التوفيق[4].

ما قاله عبد الله بن الحسن للسفاح

وفيما يُذكر عن عبدالله بن حسن[5] أنه بينا هو يسايرأبا العباس [السفاح] بظاهر مدينة

(١) كان صاحب الشُّرطة فى أيام المهدىّ فالهادى فالرشيد. وكان من أكابر القوّاد وتولّى أرمينيّة وأذربيجان. له مع الهادى حكاية ظريفة ذكرها ابن الأثير (ج ٦ ص ٧٠ و ٧١). وكان بينه وبين يحيى بن خالد البرمكى عداوة ومحاسد، وآلت بنصالحهما على يد أحد المزوّرين من حيث لا يعلمان ولا يعلم (ساقها فى المحاسن والمساوى ص ٤١٥ — ٤١٦). وفيه يقول أحد الشعراء فى شكاة أشكاه:

ظلّتْ عَلَىَّ الأرضُ مُظلِمَةً * إذ قيل: عبدُ الله قد وُعِكا.
باليت ما بك بى، وإن تَلِفَتْ * نفسى لذاك! وقلّ ذاك لَكا!

(أُنظر ابن الأثير ج ٦ ص ٦٥ و ٦٨ و ١٢٥ و ١٣٤ و ١٤١ و ١٤٢ و ١٤٥ و ١٥٣ و ١٥٤ وانظر الأغانى ج ٥ ص ٥ وج ٨ ص ١٠٥ وج ١٦ ص ١٦٧). [وانظر صفحة ٩٢ من هذا الكتاب].

(٢) يستفاد من كلام الجاحظ هنا مضافاً إليه كلام ابن الأثير (فى ج ٦ ص ٦٥ وفى ج ٧ ص ٧٦) أن من شعار الخليفة وولىّ عهده أن يسير قائدٌ بحربة بين يدىْ كلّ منهما.

(٣) كذا فى ص، وفى العقد الفريد وفى المحاسن والمساوى. ولعلّ الأصل: "الماثق".

(٤) نقل ابن عبد ربه هذه الحكاية باختصار فى مقدّمتها ولم يُشر إلى مصدرها. (العقد الفريد ج ١ ص ٢٧٦) ونقلها بالحرف فى "المحاسن والمساوى" (ص ٤٩٧)

(٥) هو عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب. وله أخبار ووقائع كثيرة مع السفّاح والمنصور. لأن السفّاح اجتهد فى ترضّيه حتى لا يطالب بالخلافة. وكذلك فعل المنصور. ولكنّ ولديه محمّدًا النفس الزكية وإبراهيم خرجا على المنصور. (أُنظر العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣ ص ٣٤ والأغانى ج ١٨ ص ٢٠٣ — ٢٠٩ والطبرى والكامل للمبرّد بمقتضى فهارسهما).

(٨) الأنبار وهو ينظر إلى بناء قد بناه، فقال أبو العباس له: هاتِ ماعندك، ياأبا محمد! (وهو يستطعمه[1] الحديثَ بالأُنْس منه) فأنشده:

أَلَمْ تَرَ مالِكًا لمّا تَبَنَّى * بناءً نفعُه لبنى بُقَيْلَهْ؟
يُرَجِّى أَنْ يُعَمَّرَ عُمْرَ نُوحٍ، * وأَمْرُ اللهِ يَحْدُثُ كُلَّ لَيْلَهْ!

فتبسَّم أبو العباس كالمُغْضَب، وقال: لو علمنا، لاشترطنا حقَّ المسايرة! فقال عبد الله: ياأمير المؤمنين، بوادرُ الخواطر وإغفالُ المشايخ! قال: صدقتَ، خُذْ فى غير هذا[2].

ما قاله الهاشمى لأبى مسلم الخراسانى

وذكر المدائنيُّ أن عيسى بن موسى[3]، بينما هو يساير أبا مُسلم[4] عند مُنصَرَفه

(١) ص: يستفهمه.

(٢) روى صاحب "محاسن الملوك" هذه القصة (ص ٨٣ و ٨٤)، ورواها أيضا صاحب الأغانى (جزء ١٨ ص ٢٠٦) باختصار، وأورد البيت الأول هكذا:

ألم تر حوشبا أمسى يبنى * بناء نفعه لبنى نفيله

ونفيلة تصحيف فى المحاسن وفى الأغانى، إذ لم يرد فى أسمائهم؛ والذى ورد من هذه المادة إنما هو نُفَيْل. وأما بقيلة فهو الاسم الصحيح الوارد فى متون اللغة وكتب التاريخ. قال ابن دُريد: "ومنهم (أى من العرب) بنو سُنَيْن وهم بالحيرة منهم بُقَيْلة صاحب القصر الذى يقال له قصر بنى بُقَيْلة بالحيرة. منهم عبد المسيح بن عمرو بن حيّان ابن بُقيلة الذى صالح خالد بن الوليد على الحيرة، وكان من المعمَّرين وهو الذى بعث به كسرى أبرويز إلى سطيح بالشام فى رؤيا الموبذان، وله حديث." وفى حاشيته ما نصه: "فى معجم الشعراء للمرزبانى رحمه الله: عبد المسيح بن بُقَيْلة الغسّانى هو عبد المسيح بن عمرو بن قيس بن حيّان بن بقيلة. وبُقَيْلة اسمه ثعلبة بن سُنَيْن ويُقال الحارث. وسمى بقيلة لأنه خرج فى بُرْدَيْن أخضرين، فقيل له: ياحارث! ما أنت إلا بقيلة خضراء. فغلبت عليه. (الاشتقاق ص ٢٨٥؛ وراجع الطبرى وابن الأثير فى فهارسهما؛ وتاج العروس فى ب ق ل، وف ل؛ والمسعودى ج ١ ص ٢١٧–٢٢٢ وج ٢ ص ٢٢٨؛ وكتاب البلدان لليعقوبى ص ٣٠٩). وقد أورد هذه الحكاية صاحب العقد الفريد (ج ٣ ص ٣٤) وجاء فى النسخة المطبوعة: "نقيلة" بالنون والفاء. وهو غلط أيضا من الناسخ أو الطابع. وأوردها أيضا فى "المحاسن والمساوى" (ص ٤٩٨)، ولم يغلط طابعه فى "بقيلة".

(٣) هو عيسى بن موسى بن محمد بن علىّ بن عبد الله الهاشمى (راجع فهارس ابن الأثير والأغانى).

(٤) هو أبو مُسلم الخراسانى صاحب الدعوة العباسية بخراسان. [وانظر ص ١٧٦ من هذا الكتاب وحاشية ٣ منها].

إلى أبى جعفر فى اليوم الذى قُتل فيه، إذ أنشد عيسى:

سيأتيك ما أفنى القرونَ التى مضتْ، * وما حلَّ فى أكناف عادٍ وجُرْهُمِ،
ومَن كان أدنى منك عِزًّا ومَفْخَرًا، * وأنهدَ باجلِيش اللَّهَامِ العَرَمْرَمِ.

فقال أبو مسلم: هـذا مع الأمان الذى أُعْطِيتُ؟ قال عيسى: أعتِقُ ما أملِكُ إنْ كان هذا لشئ من أمرِك! وما هو إلَّا خاطرٌ أبداه لسانى. قال: فبئس الخاطرُ (٩٩) واللهِ إذَنْ!

عدم تسمية الملك أو تكنيته

ومن حقِّ المَلك أنْ لايُسَمَّى ولا يُكَنَّى فى جدٍّ ولا هَزْلٍ ولا أُنسٍ ولا غَيْرِه.
ولولا أنّ القدماء من الشعراء كَنَّتِ المُلوك وسَمَّتهم فى أشعارها وأجازتْ ذلك واصطلحتْ عليه، ما كان جَزاءُ مَن كَنَّى مَلِكًا أو خليفةً إلا العقوبةَ. على أن ملوك آل ساسان لم يُكَنِّها أحدٌ من رعاياها قَطُّ ولا سمَّاها فى شِعرٍ ولا خُطبةٍ ولا تقريظٍ ولا غيرِه. وإنما حدث هذا فى ملوك الحِيرَة.

(١) صـ: أدنى.
(٢) كثير النهود أو النهوض بأمر الجيش والقيام بأعبائه.
(٣) نقلها فى "المحاسن والمساوى" (ص ٤٩٨).
(٤) أطنب ياقوت فى وصف هذه المدينة وأحوالها وأساطيرها فى الجاهلية، ولم يذكر لنا شيئا عنها فى أيام عظمتها على عهد الإسلام. وإنما آستدنا منه أنها بقرب النَّجَف. ولذلك رأينا أن نثبت هنا ماجاء عنها فى الأغانى (ج ٨ ص ١٢٥) ليعرف القارئ مكانتها التى دخلت الآن فى خبر كان. قال:
« كان بعض ولاة الكوفة يذم الحيرة فى أيام بنى أُمية. فقال له رجل من أهلها، وكان عاقلا ظريفا:
ـ أتعيب بلدة بها يُضرب المثل فى الجاهلية والإسلام؟
ـ وبما ذا تُمدَح؟ =

والدليل على ذلك أنه لو سَمَّى أحدٌ من الخطباء والشعراء فى كلامه المنثور مَلِكًا

= ــ بصحة هوائها ، وطيب مائها ، ونزهة ظاهرها . تصلح للخفّ والظلف . سهل وجبل ، وبادية وبستان ، وبرّ وبحر ، محلّ الملوك ومزارهم ، ومسكنهم ومثواهم . وقد قدمتَها ــ أصلحك الله ــ مُخِفًّا فرجعت مثقّلًا ، ووردتَها مُقِلًّا فأصارتك مُكثِرًا .

ــ فكيف تعرف ماوصفتها به من الفضل ؟

ــ بأن تصير إلىّ ، ثم آدعِ ماشئت من لذّات العيش ، فوالله لا أجوز بك الحيرة فيه !

ــ فاصنع لنا صنيعا [Une partie de plaisir] ، واخرُج من قولك .

ــ أفعــلُ !

فصنع لهم طعاما ، وأطعمهم من خبزها وسمكها وما صِيد من وحشها : من ظباء ونعام وأرانب وحُبارَى . وسقاهم ماءها فى قلالها ، وخمّرها فى آنيتها . وأجلسهم على رُقُمها ، وكان يُتَّخذ بها من الفراش أشياء ظريفة . ولم يستخدم لهم حُرًّا ولا عبدًا إلّا من مولّديها ومولّداتها ، من خَدَم ووصائف كأنّهم اللؤلؤ ، لغتهم لغة أهلها . ثم غناهم حُنَيْن وأصحابه فى شعر عَدِىّ بن زيد ، شاعرهم ، وأعشى هَمْدان لم يجاوزهما . وحيّاهم بر ياحينها . ونَقَّلهم على خمرها ــ وقد شربوا ــ بفواكهها . ثم قال :

ــ هل رأيتَنى استعنتُ على شىء مما رأيتَ وأكلتَ وشربتَ وافترشتَ وشممتَ وسمعتَ ، بغير مافى الحيرة ؟

ــ لا ، والله ! ولقد أحسنتَ صفة بلدك ، ونَصَرْتَه فأحسنتَ نُصرتَه والخروجَ مما تضمّنته . فبارك الله لكم فى بلدكم ! »

وكان ابن شُبْرُمَة يقول : "يوم وليلة بالحيرة خير من دواء سنتين" . (كتاب البلدان للهمدانى ص ٢٦٢) . وعن أهلها أخذت قريش الزندقة فى الجاهلية ، والكتابةَ فى فجر الإسلام (الأعلاق النفيسة لابن رُسْتَه ص ١٩٢ و ٢١٧) .

وكانت عمارة الكوفة سبب خراب الحيرة . وقد أتى على الكوفة الزمان ، وكذلك الأمر فى واسط وسُرَّ مَنْ رأى . وأنت عليم بما صارت إليه البصرة وبغداد . وهذه الستّة هى أكبر أمصار العراق فى عهد الخلافتين . وناهيك بها من أمصار رفعت للحضارة أعلى منار ! فسبحان من بيده ملكوت الأرض والسماء ! يتصرف بالبلاد والعباد كما يشاء !

أو خليفةً وهو يُخاطبه بآسمه، كان جاهلا ضعيفا خارجا من باب الأدب. ولولا أن الاصطلاح (١) منعنا إيجابَ (٢) المنع من ذلك، كان من أوّل ما يجب.

ولا أدرى لِمَ فعل القدماء ذلك. كما أنى لا أدرى لِمَ (٣) أجازته ملوكُها ورضِيَتْ به، إذ كانت صفة الملوك ترتفع عن كل شئ وترقى عنه.

وكانت الجفاة من العرب بسوء أدبها وغِلَظ تركيبها ـ إذا أَتَوُا النبى (صلّى الله عليه وسلم) ـ خاطبوه ودَعَوْهُ بآسمه وكُنْيَته. فأمّا أصحابه، فكانت مخاطبتهم إياه: "يارسول الله!" و"يانبىَّ الله!" (٧٠)

(١) صـ: "الاضطلاع" وبجانبها "الاصطلاح". وفى سـ: الاصلاح.

(٢) سبق الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموى إلى تقرير هذه القاعدة. فهو أوّل من منع الناس أن يناده بآسمه. (محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر). ولكن يظهر أن ذلك الأمر تراخى بتطاول العهد، فعاد القوم إلى ما كانوا عليه.

(٣) على أن أهل الأدب ورواة الأشعار كانوا يحرّزون عند إنشاد القصائد على أحد الخلفاء والأمراء، فيتخيرونها من التى لا يكون فيها آسم معشوقة يشابه آسمَ أُمٍّ له أو آبنة أو أخت أو زوجة (الأغانى ج ٥ ص ١٧٤). وفى "محاسن الملوك" (ص ٢٩) أن إبراهيم بن المهدىّ قال: كنت عند الرشيد، فأُهْدِيَتْ له أطباقٌ ومعها رُقعةٌ. فلمّا قرأها، آستخفّه الطرب. فقلت: ياأمير المؤمنين، ما الذى أطربك؟ فقال: هذه هديّة عبدالملك بن صالح. ثم نبذ إلىّ الرقعة، فإذا فيها بعد البسملة: "دخلتُ، ياأمير المؤمنين، بستانًا عَمَّرتُه بنعمتك، وقد أينعتْ أثمارُه وفاكهته. فأخذتُ من كلّ شيء (وعدَّدَ أنواعا من الفاكهة) وصيَّرتُه فى أطباق القُضبان ووجَّهتُه لأمير المؤمنين، ليصل إلىّ من بَرَكة دعائه، ما وصل إلىّ من بِرِّه ونَعْمائه". قلتُ: ياأمير المؤمنين، وما فى هذا يقتضى هذا السرور؟ فقال: ألا ترى إلى ظَرْفه، كيف قال: "القضبان"؟ فكنّى به عن الخيزران؛ إذ كان يجرى به آسمُ أُمِّنا.

وهكذا يجب للملوك أن يقال فى مخاطبتهم : ياخليفة الله ! (١) و ياأمين الله ! (٢) و ياأمير المؤمنين ! (٣)

(١) لم يرض أبو بكر الصِّدِّيق بأن يُسمَّى خليفة رسول الله (كما فى لسان العرب ج ١٠ ص ٤٣٧) فضلا عن أن يُسمَّى خليفة الله . ولكن الكُتَّاب والشعراء جرى اصطلاحهم على خلاف ذلك . قال الزجّاج : جاز أن يقال للأئمة "خلفاء الله فى أرضه" بقوله تعالى : "يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ" (لسان العرب ج ١٠ ص ٤٣١) . وقال جرير : "خليفةَ الله ماذا تأمُرَنَّ بنا؟" وقال أيضا : "خليفةُ الله يُستسقَى به المطرُ" . وقال بشّار (وإن كان من باب التهكُّم) :

ضاعتْ خلافتكم ، ياقومِ ، فالتمِسُوا * خليفةَ الله بين الزقِّ والعُودِ !

وقد قال صاحب محاضرة الأوائل إن المعتصم بن الرشيد هو أوّل من تلقب بخليفة الله . فلعلّ ذلك كان بصفة رسمية فى المكاتبات الصادرة عن ديوانه . وإلّا فقد رأينا من الأشعار السابقة أن هذا اللقب كان موجودا فعلًا .

(٢) قال حسّان بن ثابت يرثى عثمان بن عفّان .

إنّى رأيتُ أمينَ الله مضطَهَدًا * عثمانَ رهنًا لدى الاحداث والكفنِ .

(٣) قال فى "محاسن الملوك" بهذه المناسبة (ص ٢٥ — ٢٧) ما نصُّه :

«وإنما يُتسامح بذلك للشعراء . وما زالت الشعراء يَمْدَحون الملوك بأسمائهم ، ولا يُنكَر ذلك عليهم . كقول الشاعر ، وهو حسّان :

هَجَوْتَ محمّدًا فأجَبْتُ عنه * وعِند الله فى ذاك الجزاءُ .

وكقول المرأة تخاطبه :

أمحمدٌ ، ولَدَتْكَ ضِنْءُ كريمةٍ * فى قومها والفَحْلُ فحلٌ مُعْرِقُ !

رُوِىَ أنه قدم رجل من الأعراب على عُمر رضى الله عنه ومعه صبيّةٌ له وأهلُه ، فقال يُخاطبه :

يا عُمَرَ الخيرِ جُزِيتَ الجنّهْ * اُكْسُ بُنَيَّاتِى وأُمَّهُنّهْ

أُقسم بالله لتَفْعَلَنّهْ

فقال عُمر : يكون ماذا؟ فقال :

يكونُ عَن حالى تَسْأَلَنّهْ =

الأدب فى حالة مشابهة الاسم لإحدى صفات الملك أو لاسمه

ومن حقّ الملك، إذا دخل عليه رجُلٌ، وكان اسمُ ذلك الرجُل الداخل أحدَ صفات المَلك، فسأله المَلك عن اسمه، أن يُكَنِّىَ عنه ويُجيبَ باسم أبيه. كما فعل سعيدُ

= فقال عُمر: متى؟ قال:

يومَ تكون الأعْطِيَاتُ جُنَّهْ * والواقفُ المَسْؤولُ بَيْنَهُنَّهْ
إمَّا إلى نارٍ وإمَّا جَنَّهْ.

فنبذ عمر رضى الله عنه قَمِيصَهُ، وقال: هذا جُنَّةُ ذَلك اليوم!

ورُوى أن الرشيدَ جَلَس يومًا للمَظالم فرأى فى الناس شيخًا حَسَن الهَيئة. فلمَّا تقوَّض المجلس، نام الشيخ وبيده قِصَّته، فأمر بأخذها. فقال: إنْ رأى أمير المؤمنين أنْ يأذَنَ لى فى قراءتها، فإنى أحسَنُ تعبيرًا لخَطِّى. قال: اقرأ! قال: يا أمير المؤمنين، إنى شيخٌ كبيرٌ ضعيفٌ، والمَقامُ عظيمٌ. فإنْ رأى أمير المؤمنين أن يأذَنَ لى فى الجلوس؟ فقال: اجلس! فجلس. ثم قال:

يا خيرَ مَن جَدَّتْ لرِحلَتِهِ * نُجُبُ الركاب بهمِّهِ جَلْسِ!

يقول فيها:

لما رأتْكَ الشمسُ طالعَةً، * سجدتْ لوجهك طلعةُ الشَّمْسِ.
خيرُ البريَّةِ أنت كلِّهِمِ * فى يومك الغادى وفى أمْسِ،
وكذاك لم تَنفَكَّ خيرهمُ * تُمْسى، وتُصبح فوق ما تُمْسى.
لله يا هَرُونُ من مَلِكٍ * عفّ السريرة طاهرِ النَّفْسِ!
تَمَّتْ عليه لربِّهِ نِعَمٌ * تَزْدادُ جِدَّتُها على اللُّبْسِ.

(أردتُ قوله "لله يا هارون")

وبقية الشعر:

من عِتْرَةٍ طابت أُرُومَتُها، * أهلِ العَفافِ ومنتهى القُدْسِ.
مُتَهَلِّلِينَ على أسِرَّتِهِمْ * ولَدَى الهِياجِ مَصاعِبُ شُمْسِ =

ابنَ مُرّة الكِندىُّ، حين أتىٰ مُعاوية فقال له: أنت سعيدٌ؟ فقال: أميرُ المؤمنين السعيدُ، وأنا آبن مُرّة![1]

وكما قال السَّيِّدُ بن أنَس الأَزْدِىُّ[2] ـ وقد سأله المأمون عن آسمه ـ فقال: أنت السيِّد؟ قال: أميرُ المؤمنين السَّيِّدُ، وأنا آبن أَنَس[3]!

وهكذا جاءنا الخبر عن العبَّاس بن عبد المُطَّلِب، عمِّ رسول الله (صلّىٰ الله عليه وسلم) وصِنْوِ أبيه. قيل له: أنت أكبرُ أم رسول الله؟ فقال: هو أكبر منِّى، وولِدْتُ أنا قبلَه[3]!

= إنى لجأتُ إليك من فَزَعٍ * قد كان شَرَّدَنى من الأُنْسِ.
لمَّا آستخرتُ الله مجتهدًا، * يَمَّمْتُ نحوك رحلةَ العَنْسِ.
وآخترْتُ حلمك لا أُجاوزه * حتى أُغيَّبَ فى ثرىٰ الرَّمْسِ.

فلما أتىٰ على آخرها، قال: مَن يكون الشيخ؟ قال: على بن الخليل الذى يقال إنه زنديق. قال: أنت آمنٌ! وأمر له بخمسمائة ألف درهم.

وأما مَنْ سوىٰ الشعراء، فَلْيَقُلْ: أيُّها الخليفة! أو ياأمير المؤمنين! أو ياسلطان العالَم! أو ياأمينَ الله أو ياأمير المسلمين!

قال المُغيرة لعُمر رضى الله عنهما: ياخليفة الله! فقال عمر: ذاك نبىّ الله داود! قال: ياخليفة رسول الله! قال: ذاك صاحبكم المفقود! قال: ياخليفة خليفة رسول الله! قال: ذاك أمرٌ يطول! قال: ياعمر! قال: لاتَجْنِ مقامى شرفه! أنتم المؤمنون، وأنا أميركم. فقال المغيرة: ياأمير المؤمنين! »

(١) روىٰ ذلك صاحب "محاسن الملوك" (ص ٢٨)، ورواها فى "المحاسن والأضداد" (ص ٢١) وفى "المحاسن والمساوى" (ص ٤٩٠)

(٢) أُنظر المحادثة بعبارة أُخرىٰ فى محاضرات الراغب (ج ١ ص ١١٧).

(٣) أُنظر رواية أُخرى فى محاضرات الراغب (ج ١ ص ١١٧)؛ وآنظر "المحاسن والأضداد" (ص ٢١) و"المحاسن والمساوى" (ص ٤٩٠).

ألا تراه (رحمه الله) كيف تخلّص إلى أحسن الأحوال فى الأدب. فاستعمله؟ (١)

وعلى هذا المثال يجب أن تكون مخاطبة الملوك، إذ كانت صيغتهم غير صيغ العامّة، (٢) (٧١)
كما قال أردشير بن بابك فى عهده إلى الملوك.

* * *

الأمور التى يتفرد بها الملك فى خاصته

ومن حقّ المَلك أن يتفرّد فى قرار داره بثلاثة أشياء. فلا يطمع طامعٌ فى أن يَشْرَكَه فيها.

---

(١) ومما يدخل فى هذا الباب ماحكاه ياقوت الحموىّ فى معجم الأدباء (ج ١ ص ١٤٩ طبع الأستاذ مرجوليوث) أن "أبا زيد البلخىّ لما دخل على أحمد بن سَهْل ــ أوّل دخوله عليه ــ سأله عن اسمه. فقال: أبو زيد. فعجب أحمد بن سهل من ذلك حين سأله عن اسمه فأجاب عن كنيته، وعدّ ذلك من سَقَطاته. فلما خرج، ترك خاتمه فى مجلسه عنده. فأبصره أحمد بن سهل، فازداد تعجّبا من غفلته. فأخذه بيده ونظر فى نقش فصّه، فإذا عليه: أحمد بن سهل. فعلم حينئذ أنه إنما أجاب عن كنيته لموافقة الواقعة بينه وبين اسمه، وأنه أخذ بحسن الأدب وراعى حدّ الاحتشام، واختار وصمة التزام الخطإ فى الوقت والحال، على أن يتعاطى اسم الأمير بالاستعمال والابتذال."

وروى ابن عبد ربه (ج ١ ص ٢٧٣) فى هذا المعنى أيضا أنه قيل لأبى وائل: أيكما أكبر، أنت أم الربيع بن خيثم؟ قال: أنا أكبر منه سنّا، وهو أكبر منى عقلا.

وقال معاوية لأبى الجهم العدوىّ: أنا أكبر أم أنت؟ فقال: لقد أكلتُ فى عرس أمك، ياأمير المؤمنين. قال: عند أىّ أزواجها؟ قال: عند حفص بن المغيرة. قال: ياأبا الجهم، إياك والسلطان! فانه يغضب غضب الصبىّ ويأخذ أخذ الأسد. (ابن عبد ربه ج ١ ص ١٢). قال الحجاج للهلّب: أنا أطولُ أم أنت؟ فقال: الأمير أطول، وأنا أبسَطُ قامةً منه. (المحاسن والأضداد ص ٢٢، والمحاسن والمساوى ص ٤٩٠)

وكان الأولى به أن يقتدى بطويس المغنّى المشهور فقد سأله سعيد بن عثمان بن عفان: أيّنا أسنُّ؟ فقال: "بأبى وأمّى أنت! لقد شهدتُ زفاف أمّك المباركة إلى أبيك الطيّب." لئلا يُوهم أمرًا. (ابن عبد ربه ج ١ ص ٢٧٣؛ ومحاضرات الراغب ج ١ ص ١١٧). أورد الجاحظ قبل غيره هذه الحكاية وعلّق عليها تعليقا لطيفا، فقال: فانظر الى حذقه وإلى معرفته بمخارج الكلام! كيف لم يقل "بزفاف أمّك الطيّبة إلى أبيك المبارك" (انظر البيان والتبيين ج ١ ص ١٠٤)

(٢) صـ: "كانت صنيعهم غير صنيع العامة."

فمنها الحِجَامة، والفَصْد، وشُرب الدواء. فليس لأحدٍ من الخاصّة والعامّة ممن في قصبة دار المملكة أن يشركه في ذلك.

وكانت ملوك الأعاجم تمنع من هذا وتعاقب عليه وتقول: "إذا أراق المَلك دمه، فليس لأحد أنْ يُريق دمه في ذلك اليوم حتّى يساوىَ المَلك في فعله؛ بل علىٰ الخاصة والعامّة الفحصُ عن أمر المَلك، والتشاغُلُ بطلب سلامته، وظهور عافيته، وكيف وجد عاقبة ما يُعالَجُ به."

وليس الاقتفاء بفعل الملك في هذا وما أشبهه من فِعلِ مَنْ تَمَّتْ طاعتُه وصَحَّتْ نِيَّتُهُ وحسُنتْ معونته، لأن في ذلك استهانةً بأمر الملك والمملكة.

ومَن قصد إلىٰ أن يَشْرَك الملكَ في شئ يجد عنه مندوحةً ومنه بُدًّا، بالمُهَل المبسوطة والأيام الممدودة، فهو عاصٍ مفارقٌ للشريعة.

(٧٣) ويقال إن كسرىٰ أنوشروان كان أكثر ما يحتجم في يوم السبت. وكان المنادى - إذا أصبح في كل يوم سبت - نادىٰ: "ياأهل الطاعة! ليكن منكم تركُ الحجامة في هذا اليوم على ذِكْرٍ! وياحجامون! اِبطلوا هذا اليوم لنسائكم وغَسْل ثيابكم!" وكذا كان يفعل في يوم فصد العِرق وأخذ الدواء.

***

عدم تشميت الملك وعدم التأمين على دعائه

ومن حقِّ الملك - إذا عَطَسَ - أنْ لا يُشَمَّت، وإذا دعا، لم يُؤَمَّنْ على دُعائه.

وكانت ملوك الأعاجم تقول: "حقيقٌ علىٰ المَلك الصالح أن يدعو للرعيّة الصالحة، وليس بحقيقٍ للرعيّة الصالحة أن تدعُوَ للمَلك الصالح: لأن أقربَ الدعاء إلىٰ الله دعاءُ المَلك الصالح."

✣

عدم تعزية الملك

ومن حقّ الملك أن لايُعَزِّيَه أحدٌ من حاشيته وحامّته وأهل بيته وقرابته. وإنما جُعِلت التعزيَة لمن غاب عن المصيبة، أو لمن قَارَبَ المَلك فى العزّ والسلطان والبهاء والقدرة. فأما مَن دون هؤلاء، فيُنْهَوْن عن التعزيَة أشدّ النَّهْي.

وفيما يُذكَرُ عن عبد الملك بن مَرْوَانَ أنه مات بعض بنيه وهو صغير، فجاءه الوليد فعزّاه، فقال: يا بُنَيَّ! مصيبتى فيك أقدح فى بدنى من مصيبتى بأخيك! ومتى رأيتَ آبنًا عزّى أباه؟ قال: ياأمير المؤمنين! أمّى أمَرَتْنى بذلك. قال: ذاك يا بُنَيَّ أهونُ علىّ! وهذا لَعَمْرِى من مَشُورَة النساء!

✣

سرعة الغضب وبطء الرضا

ومن أخلاق الملك سرعة الغضب، وليس من أخلاقه سرعة الرضا.

فأما سرعة الغضب، فإنما تأتى الملك من جهة دوام الطاعة. وذلك لأنه لايدور فى سمعه مايكره فى طُولِ عمره. فاذا أَلِفَتِ النفسُ هذا العزَّ الدائم، صارأحدَ صفاتها. فمتى قُرِع حِسُّ النفس ما لا تعرفه فى خُلُقها، نَفَرَتْ منه نُفورا سريعا، فظهر الغضب، أَنَفَةً وحَمِيَّةً.

وأما رضا الملك فبطىءٌ جدّا. لأنه شيءٌ تُمانعه النفس أنْ يفعله، وتدفَعُهُ عن نفسها. إذ كان فى ذلك جنسٌ من أجناس الآستخذاء، وخُلُقٌ من أخلاق العامّة.

---

(١) صـ: والقرابة.

(٢) روى صاحب "المحاسن والمساوى" هذه القصة (ص ٥٨٥ ـ ٥٨٦) ورواها صاحب "محاسن الملوك" (ص ٣٤) وختمها بأن عبد الملك قال لآبنه: "والله لَتعزيتُك إيّاى أهون علىّ من قبولك مَشُورة النساء!" [وهى أحسن من روايتنا.] ثم أضاف على ذلك أن "يزيد بن معاوية وعمر بن عبدالعزيز وغيرهما من ملوك الإسلام لايرون بذلك بأسًا."

غضب السفاح على أحد رجاله

وهكذا يُحْكَى عن أبى العباس أنه غَضِبَ على رجُل ذهب عنِّى آسمه، فذكره ليلةً من الليالى. فقال له بعض سُمَّاره: ياأمير المؤمنين! فلانٌ لو رآه أعدىٰ خَلْق الله (٧٤) له، لرحمه وآنعصر له قلبه(١). قال: ولِمَ ذاك؟ قال: لغضب أمير المؤمنين عليه. قال: ما له من الذَّنْب مايبلغ به من العقوبة هذا الموضع. قال: فَمُنَّ عليه، يا أمير المؤمنين، برضاك. قال: ماهذا وقت ذاك! قال: قلتُ إنك ياأمير المؤمنين لما صغَّرتَ ذنبه، طمِعتُ فى رضاك عنه. قال: إنه مَن لم يكن بين غضبه ورضاه مدّة طويلة، لم يَحْسُن أن يغضب ولا يرضىٰ.

وعلىٰ هذا أخلاقُ الملوك وصنيعُهم.

غضب الرشيد على أحد قوّاده

وكذا جرىٰ لعبد الله بن مالك الخُزاعىّ(٢) مع الرشيد، حين غضب عليه. أَمَرَ أهله وحَشَمَه وجميعَ قرابته أن يجتنبوا كلامه وخدمته ومعاطاته حتّى أَثَّر ذلك فى نفسه وبدنه. فتحاماه أقرب الناس منه من ولد وأهل، فلم يَدْنُ منه أحدٌ ولم يَطُفْ به. فجاءه محمد بن إبراهيم الهاشمىّ — وهو كان أحد أوِدّائه — نِ جوف الليل، فقال له: يا أبا العبّاس! إنّ لك عندى يدًا لا أنساها ومعروفا ما أكفُرُه. وقد علمتُ ماتقدّم به أميرالمؤمنين فى أمرك. وها أنا ذا بين يديْك ونُصْب(٣) عينيْك! فَمُرْنى بأمرك! فو الله

(١) يقال فى اللغة عَصَرَ العنب ونحوه فآنعصر. وفى المفضليات:

وهِىَ لَوْ يُعْصَرُ مِنْ أَرْدَانِهَا * عَبَقُ المِسْكِ، لَكَانَتْ تَنْعَصِرْ.

ومن شواهد النحاة:

خَوْدٌ يُغَطِّى الفَرْعُ منها المُؤْتَزَرْ * لَوْ عُصِرَ منها آلْبَانُ والمِسْكُ، آنْعَصَرْ.

وكنّى الجاحظ بآنعصار القلب عن شدّة الألم لحال الرجل. ومن مجاز الأساس: "أنا معصور اللسان" أى يابسه عطشا.

(٢) [أُنظر الحاشية رقم ١ من صفحة ٨١ من هذا الكتاب].

(٣) أكثر العرب على ضم النون، كما فى شفاء الغليل.

لأجعلنّ نفسى وِقايةَ نفسِك، أوأَسُوقَها فى كلّ ما نَكَأَها (١) أو جَرَحَها (٢). فقال له عبد الله (٧٥)
خيرا، وأثنىٰ عليه، وأخبره بعذره فى مَوْجِدَة أمير المؤمنين عليه. فوعده محمدٌ أن يُكَلِّمَ
أمير المؤمنين ويخبره بٱعتذاره. فلما أصبح محمدٌ وافاه رسول أمير المؤمنين، فركب.
فلما دخل عليه، قال: مَن أتيتَ فى هذه الليلة؟ قال: عبدَك يا أمير المؤمنين،
عبدَ الله بن مالك، وهو يحلف بطلاق نسائه وعِتْق مماليكه وصَدَقة ماله مع عشرين
نَذْرًا يُهديها إلىٰ بيت الله الحرام حافيًا راجلًا، والبراءة منْ ولاية أمير المؤمنين إنْ كان
ما بلغ أمير المؤمنين سمِعَه اللهُ من عبد الله بن مالك، أو ٱطَّلع عليه أو همّ به أو أضمره
أو أظهره. قال: فأطرق الرشيد مَلِيًّا مُفَكِّرًا. وجعل محمدٌ يلحظه، ووجهه يُسفِرُ
ويُشْرِق حتّى زال ما وجده. وكان قد حال لونُه حين دخل عليه. ثم رفع رأسه
فقال: أحْسَبُه صادقا، يا محمّدُ. فَمُرْهُ بالرَّواح إلىٰ الباب. قال: وأكون معه يا أمير المؤمنين؟
قال: نعم. فٱنصرف محمدٌ إلىٰ عبد الله، فبشّره بجميل أمره، وأمره بالركوب رواحًا.
فدخلا جميعا. فلما بَصُر عبد الله بالرشيد ٱنحرف نحو القِبلة فخرّ ساجدا، ثم رفع (٧٦)
رأسه. فٱستدناه الرشيد. فدنا وعيناه تهملان. فأكبَّ عليه فقبّل رِجله وبِساطه
وموطئ قدميه، ثم طلب أن يأذن له فى الٱعتذار. فقال: مابك حاجةٌ إلىٰ أن تعتذر،
إذ عرفتُ عُذرَك. قال: فكان عبد الله بعدُ، إذا دخل علىٰ الرشيد، رأىٰ فيه بعض
الإعراض والٱنقباض. فشكا ذلك إلىٰ محمد بن إبراهيم. فقال محمدٌ: يا أمير المؤمنين! إن
عبد الله يشكو أثرًا باقيًا من تلك النَّبْوَة التى كانت من أمير المؤمنين، ويسأل الزيادة

(١) أوجب وقوع النكاية بها.

(٢) أصابها بجراحة.

فى بَسطه له . فقال الرشيد : يامحمد ! إنا معشر الملوك ، إذا غضبنا على أحد من بِطانتنا ثم رضينا عنه بعد ذلك ، بَقِىَ لتلك الغَضْبة أثرٌ لايُخرجه ليلٌ ولا نهارٌ.(١)

✣

كتم الملك أسراره

ومن حقّ المَلك أن يكتُمَ أسراره عن الأب والأُمّ والأَخ والزوجة والصَّديق. فإنّ المَلك يَحتمِل كلّ منقوص ومأنوف ،(٢) ولا يحتمل ثلاثةً : صفة أحدهم أنْ يطعن فى مُلكه ، وصفة الآخر أن يُذيع أسراره ، وصفة الآخر أن يخُونه فى حُرَمه.(٣)

فأما من وراء ذلك ، فمن أخلاق الملوك أن تَلبَس خاصَّتها ومَن قرب منها على مافيهم ، وأن تستمع منهم إذا سَلِمُوا من هذه الصفات الثلاث.

وكان كسرى أبرويز يقول : "يجب على الملك السعيد أن يجعل همَّهُ كلَّهُ فى آمتحان أهل هذه الصفات ، إذ كانت أركانَ الملك ودعائمَه(٤)".

إمتحان أبرويز رجاله فى حفظ السرّ

فكانت محنتُه فى إذاعة السرّ عجيبةً. وللقائل أنْ يقول فيها إنها خارجة من باب العدل ، داخلة فى باب الظلم والجَوْر ، وللآخر أن يقول إنها مِحَنُ الحكماء من الملوك.

وكان إذا عرف من رجُلين من بطانته وخاصّته التحابَّ والأُلفة والآتفاق فى كلّ شئ وعلى كلّ شئ ، خلا بأحدهما فأفضى إليه بسرٍّ فى الآخر ، وأعلَمَه أنه عازمٌ على قتله ، وأمَرَه بكتمان ذلك عن نفسه ، فضلا عن غيره . وتقدّم إليه فى ذلك بوعيده.

(١) نقل هذه القصة فى "المحاسن والمساوى" (ص ٥٤٢ ــ ٥٤٣).

(٢) أى الرجل المكروه . وهذه الكلمة ساقطة فى ص .

(٣) قارن ذلك بما فى محاضرات الراغب . (ج ١ ص ١١٨) . وهذه المقولة منسوبةٌ بلفظ آخر لابى جعفر المنصور العباسى . (أُنظرها فى المحاسن والأضداد ص ٢٨ ، والمحاسن والمساوى ص ٤٠٢).

(٤) فى "محاسن الملوك" (ص ٤٥) مانصه : وأما كتمان سرّ السلطان فهو ملاك الأمر ونظام المملكة وسبب بقاء الدولة . كان أبرويز إذا دخل إليه وزيرُه وصاحب سرِّه ، لم يفاوضه فى شئ حتّى لايبقى عنده أحدٌ . فاذا لم يبقَ أحدٌ ، أمر أنْ تُرفع الستائر عمن لعلّه يكون وراءها . فإذا علم أنه ليس أحدٌ وراءها ، فاوضه بسرِّه .

ثم جعل مِحْنته فى إذاعة سرِّه ملاحظة صديقه فى دخوله عليه وخروجه من عنده، وفى إسفار وجهه ولقائه للملك. فإن وجد آخرَ أمرِه كأوّله فى أحواله، علم أن الآخَرَ لم يُفْضِ إليه بسرِّه ولم يُظهِرْه عليه، فقرّبه واجتباه ورفع مرتبته وحباه، ثم خلا به، فقال: "إنى كنتُ أردتُ قتلَ فلان لشئٍ بلغنى عنه. فبحثتُ عن أمره فوجدته باطلاً."(١)

(٧٨)

وإنْ رأى من صاحبه نفور نفس وازورارَ جانب وإعراضَ وجهٍ، علم أنه قد أذاع سرَّه، فأقصاه وأطّرحه وجفاه، وأخبر صاحبه أنه أراد مِحْنته بما أودعه من سرِّه. فإن كان هذا من أهل المراتب، وضع مرتبته؛ وإن كان من النُدماء، أمر أن يُحْجَب عنه؛ وإن كان من أصحاب الأعمال، أمر أن [لا] يُستعان به؛ وإن كان من سَدَنَة بيوت النيران، أمر بعزله وإسقاط أرزاقه. ويقول: "مَن لَمْ يصلُحْ لمَلِكه، لا يصلُحُ لنفسه؛ ومَن لَمْ يصلُحْ لنفسه، فلا خَيْرَ عنده." ويقول: "إنّ القلب أعدل على القلب شهادةً من اللسان؛ وقلّ شئٌ يكون فى القلب إلا ظهر فى العينين(٢): إذ كانت الأعضاء مشتركة يتعلّق بعضُها ببعض."

(٧٩) امتحانه لرجاله فى حفظ الحرم

فأما مِحنته فى الحُرَم، فكان إذا خفَّ الرجُل على قلبه وقَرُب من نفسه، وكان عالِمًا يُظهر التألُّه، وكان عنده ممن يصلح للأمانة فى الدماء والفروج والأموال على ظاهره، أحبَّ أن يمتحِنه بمِحْنَةٍ باطنة. فيأمُرُ به أن يُحَوَّل إلى قصره ويُفْرَغَ له بعضُ الحُجَر التى تقرب منه، ولا يُحَوَّل إليها امرأةٌ ولا جارية ولا حُرْمة ويقول له: "إنى أُحِبُّ الأُنْس بك فى ليلى ونهارى. ومتى كان معك بعض حُرَمِك، قطعك عنّى وقطعنى عنك.

(١) روى صاحب "محاسن الملوك" هذه العبارة باختصار. (ص ٥٤ ــ ٥٥)

(٢) سـ: إن القلب ليظهر مافيه فى العينين.

فاجعلْ مُنْصَرَفَك إلىٰ منزل نسائك فى كلِّ خمسِ ليالٍ ليلةً." فإذا تحوّل الرجُل وخلا به وآنسه وكان آخرَ مَن ينصرف من عنده، فيتركه علىٰ هذه الحال أشهرًا.

فامتحن رجُلا من خاصّته بهذه المحنة فى الحُرَم، ثم دسّ إليه جارية من خواصّ جواريه ووجّه معها إليه بألطافٍ وهدايا. وأمرها أنْ لاتقعد عنده فى أوّل ماتأتيه. فلما أتته بألطافِ الملك، قامتْ. فلم تَلْبَثْ أن انصرفتْ. حتّى إذا كانت المرّةُ الثانية، أمرها أن تقعُد هُنَيْهَةً. وأن تُبْدِىَ بعض محاسنها، حتّى يتأمّلَها. ففعلتْ ولاحظها الرجُل وتأمّلها ثم انصرفت. فلما كانت المرة الثالثة، أمرها أن تقعد عنده وتطيل القعود وتحادثه، وإن أرادها علىٰ الزيادة من المحادثة أجابته. ففعلتْ. وجعل الرجُل يُحِدُّ النظر إليها ويُسَرُّ بحديثها. ومن شأن النفس أن تطلُبَ بعد ذلك الغرضَ من هذه المطايبة. فلما أبدىٰ ماعنده، قالت: "إنى أخاف أن يُعْثَرَ علينا، ولكن دعنى أُدَبِّرُ فى هذا مايَتِمُّ به أَمْرُنا." ثم انصرفت. فأخبرتِ المَلِك بكلِّ مادار بينهما. فوجّه أُخرىٰ من خاصِّ جواريه وثقاتهن بألطافه وهداياه. فلما جاءته، قال لها: ما فعلتْ فلانة؟ قالت: اعتلّتْ. فاربَدَّ لون الرجُل[1]. ثم لم تُطِل القعود عنده كما فعلت الأُولىٰ فى المرّة الأُولىٰ. ثم عاودته بعد ذلك، فقعدت أكثر من المقدار الأوّل، وأبدت بعض محاسنها حتّى تأملها. وعاودته فى المرّة الثالثة، فأطالت عنده القعود والمضاحكة والمهازلة. فدعاها إلىٰ ما فى تركيب النفس من الشهْوَة. فقالت: "إنّا من الملك علىٰ خُطًىٰ يسيرة، ومعه فى دار واحدة؛ ولكنّ المَلِك يمضى بعد ثلاثٍ إلىٰ بستانه الذى بموضع كذا، فيقيم هناك. فإن أرادك علىٰ الذهاب معه، فأظهِرْ أنك عليلٌ، وتمارضْ. فإن

(١) أى علَتِ الغُبرةُ لونَهُ.

خيَّرك بين الانصراف إلىٰ دور نسائك أو المُقام هٰهنا إلىٰ رجوعه، فاختَرِ المُقام وأخبِرْهُ أنّ الحركة تصعُب عليك. فاذا أجابك إلىٰ ذلك، جئتُ فى أوّل الليل ولبثتُ عندك إلىٰ آخره.» فسَكَنَ الرقيع[1] إلىٰ هذه الأَنَسَة، وانصرفت الجارية إلىٰ الملك فأخبرته بكلّ مادار بينها و بينه. فلما كان الوقت الذى وعدته أن يخرج المَلك فيه، دعاه المَلك. فقال للرسول: أَخبِرْهُ أنّى عليلٌ. فلما جاءه الرسول وأخبَرَهُ، تبسَّم أبرويز، وقال: هذا أوّل الشرّ. فوجَّه إليه بِمِحَفَّةٍ، فحُمِل فيها حتّىٰ أتاه، وهو مُعَصَّبُ الرأس. فلما بَصُرَ به من بعيد، قال: والعِصَابةُ الشرُّ الثانى. وتبسَّمَ. فلما دنا من الملك، سجد. فقال له أبرويز: متىٰ حَدَثَتْ بك هذه العلّة؟ قال: فى هذه الليلة. قال: فأىُّ الأمرَيْن أحبُّ إليك؟ ألاّ نصرافُ إلىٰ منزلك ونسائك ليمترضْنَك أو المُقام هٰهنا إلىٰ وقت رجوعى؟ قال: هٰهنا أيها الملك أرْفَقُ بى، لقلة الحركة. فتبسَّم أبرويز، وقال: ما صدقتَ! حركتُك هٰهنا، إنْ خلَّفتُك، أكثر من حركتك فى منزلك. (٨٣)

ثم أمر أن تُخرَجَ له عصا الزُّناة التى كان يُوسَمُ بها مَن زَنىٰ. فأيقن الرجُل بالشرّ. وأمر أن يُكتب ما كان من أمره حرفًا حرفًا، فيُقرأَ علىٰ الناس إذا حضروا، وأنْ يُنفىٰ إلىٰ أقصىٰ حدّ المملكة، ويُجعل العصا فى رأس رُمْحٍ تكون معه حيث كان، ليَحْذَرَ منه مَن لا يعرفه. فلما أُخرِج بالرجُل عن المداين، مُتوَجِّهًا به نحو فارِسَ أخذ مُدْيَةً كانت مع بعض الأعوان الذين وُكِّلُوا به، فجَبَّ بها ذكره، وقال: مَن أطاع عُضوًا من أعضائه صغيراً، أفسد عليه أعضاءه كلها، صغارَها وكبارَها. فمات من ساعته.[2]

(١) الرقيع والمرقعان الأحمق وهو الذى فى عقله مَرَمَّةٌ (صحاح) [حاشية فى صـ]. والمرمة معناها هنا الاحتياج إلى الترقيع والترميم. (أنظر لسان العرب ج ٩ ص ٤٩١)

(٢) روىٰ هذه القصة فى "المحاسن والأضداد" (ص ٢٧٥ ــ ٢٧٧)

امتحانه فيمن يطعن فى المملكة

وكان قد نَصَبَ رجُلا يمتحِن به مَن فَسَدَتْ نِيَّته وطَعَن فى المملكة. فكان الرجُل يُظهر التَّأَلُّهَ والدعاء إلىٰ التخلِّى من الدنيا والرغبة فى الآخرة وترك أبواب الملوك. وكان يُقُصّ علىٰ الناس ويُبكيهم ويشوبُ فى خلال ذلك كلامَه بالتعريض بذمِّ المَلك وتركه شرائعَ ملَّته وسُنن دينه ونواميس آبائه. وكان هذا الرجُل الذى نصبه لهذا أخاه من الرضاعة وتِرْبَه فى الصِّبا. فكان إذا تكلَّم هذا الرجُل بهذا الذى قد مثَّله له أبرويز وأمره به ليمتحِن بذلك خاصَّته، أُخْبِرَ به. فيضحك لذلك أبرويز، ويقول: "فلانٌ فى عقله ضَعْفٌ، وأنا أعلم به. وإن كان كذلك فإنه لا يقصدنى بسوءٍ، ولا المملكةَ بما يُوهِنُها". فيُظهر الاستهانة بأمره والثقة من الطُّمَأْنينة إليه. ثم يوجِّه إليه فى خلال ذلك مَن يدعوه إليه، فيأبىٰ أن يُجيبه، ويقول: لا ينبغى لمن يخاف الله أن يخاف أحدًا سواه. فكان الطاعن علىٰ الملك والمملكة يُكْثِرُ الخَلْوَة بهذا الرجُل فى الزيارة له والأُنْس به. فإذا خَلَوْا، تذاكروا أمر الملك، وابتدأ الناسكُ يطعَنُ علىٰ المَلك وفى صُلْب المملكة. فأعانه الخائنُ وطابقهُ علىٰ ذلك وشايَعَهُ عليه، فيقول له الناسك: "إياك أن تُظهر هذا الجبَّار(١) علىٰ كلامك! فإنه لا يحتمِل لك ما يحتمله لى. فخُصَّ منه دَمَكَ!" فيزداد الآخر إليه استنامةً وبه ثقةً. فإذا علم الناسك أنه قد بلغ من الطعن علىٰ الملك ما يستوجب به القتل فى الشريعة، قال له: إنى عاقدٌ غدًا مجلسا للناس أقُصّ عليهم، فاحْضُرْهُ! فإنك رجُلٌ رقيقُ القلبِ عند الذكر، حَسَنُ النية، ساكنُ الريح، بعيدُ الصوت. وإن الناس إذا رأَوْك قد حَضَرْتَ مجلسى، زادتْ نيَّاتهم خيرًا، وسارعوا إلىٰ استجابتى. فيقول له الرجُل: إنى أخاف هذا الجبَّار، فلا تَذْكُرْه إنْ حضرتُ مجلِسَك.

(١) صـ: الخائن.

وكانت العلامة فيما بينه وبين أبرويز أن ينصرف الرجُل عن مجلس الناسك، إذا ابتدأ فى قصَّة الملك. وكان أبرويز قد وضع عُيونا تحضر مجلس الناسك. متىٰ جلس. فبكَّر الناسكُ وقصَّ علىٰ العامّة وزَهَّد فى الدنيا ورغَّب فى الآخرة. وحضَرَهُ الرجُل الخائن. فلما فرغ من قَصَصِه وأخذ فى ذكر الملك. نهضَ الرجُل وجاءت عيون أبرويز فأخبرته بما كان. فإذ زال عنه الشكُّ فى أمره. وجَّهه إلىٰ بعض البُلدان وكتب إلىٰ عامله: "قد وجهتُ اليك رجُلا وهو قادمٌ عليك بعد كتابى هذا فى كذا وكذا. فأظهِرْ بِرَّهُ والأُنْسَ به والثقةَ بناحيته. فإذا اطمأنَّتْ به الدار، فاقْتُلْهُ قِتلةً تُحيى بها بيتَ النار، وتصلُ بها حُرمة النُّوبَهار[1]. فإنه مَن فَسَدَتْ نيَّتُه لغير علَّةٍ فى الخاصَّة والعامَّة، لم يُصْلَح بعلَّةٍ[2]." ٨٥

✣

تغافل الملك عن الصغائر

ومن أخلاق المَلك التغافل عمّا لا يقدَحُ فى المُلك ولا يجرَحُ[3] المال ولا يَضَع من العِزّ، ويزيد فى الأُبَّهة.

وعلىٰ ذلك كانت شِيَمُ ملوك آل ساسان.

---

(١) هو بيت من بيوت النار: Pyrée. بناه الفُرس بمدينة بلخ على مثال البيت الحرام بمكة. وعنه شرح وافٍ فى ياقوت (فى حرف النون) وفى المسعودى (جزء ٤ ص ٤٧ — ٤٩ طبع باريس) وفى "مراصد الأطلاع" (فى حرف النون) وفى القزوينى (ص ٢٢١) وفى "كتاب البلدان" للهمدانى (ص ١٥٧ و ٣٢٢ — ٣٢٤) "وشفاء الغليل" (ص ٢٠٣). وانظر Dictionnaire géographique de la Perse, par Barbier de Meynard, p.p. 122,569.

(٢) صـ: "لغير علة صلحت بخلافها". وقد أورد هذه الحكاية صاحب "تنبيه الملوك" (ص ٤١ — ٤٢)، ولخصها جدّا صاحب "محاسن الملوك" (ص ٤٥)؛ وأوردها بالحرف تقريبا فى "المحاسن والمساوى" (ص ١٥٥ — ١٥٧).

(٣) صـ: فى القلب ولا يخرج.

تغافل بهرام جور عن سرقة اللجام

وفيما يُحكىٰ عن بَهْرامَ جور أنه خرج يوما لطلب الصيْد فعار[1] به فرسه حتّٰى وقع إلىٰ راعٍ تحت شجـرة، وهو حاقِنٌ[2]. فقال للراعى: اِحفظ عَلَىَّ عِنـان دابَّتى، حتّٰى أبول. فأخذ بركابه حتّٰى نزل، وأمسك عنانَ الفَرَس. وكان لجامه مُلَبَّسًا ذَهَبًا، فوجد الراعى غَفـلةً من بَهْـرامَ فأخرج من خُفِّه سِكِّينًا[3] فقطع بعض أطراف اللجـام. فرفع بَهْرامُ رأسـه فنظر إليه فاستحيا، ورمىٰ بطرفه إلىٰ الأرض وأطال الاستبراء ليأخذ الراعى حاجته من اللجام. وجعل الراعى يفرح بإبطائه عنه، حتّٰى إذا ظنّ أنه قد أخذ حاجته من اللجام، قام فقال: ياراعى! قدِّمْ إلَىَّ فَرَسى، فإنه قد دخل فى عَيْنَىَّ مما فى هذه الريح، فما أقدِر على فتحهما. وغمض عينيه لئلّا يُوهِمَه أنه يتفقَّد حلية[4] اللجام. فقرّب الراعى فَرَسه فركبه. فلما ولّٰى، قال له الراعى: أيها العظيم! كيف آخذ إلىٰ موضع كذا وكذا؟ (لموضعٍ بعيدٍ). قال بَهْرامُ: وماسؤالك عن هذا الموضع؟ قال: هناك منزلى، وما وطئتُ هـذه الناحيةَ قطُّ غيرَ يومى هـذا، ولا أُرانى أعود إليه ثانيةً. فضحك بَهرام، وفَطن لمـا أراد. فقال: أنا رجُلٌ مسافرٌ، وأنا أحقُّ بأنْ لا أعودَ إلىٰ هٰاهُنـا أبدا. ثم مضىٰ. فلما نزل عن فرسه قال لصاحب دوابّه ومراكبه: إنّ معاليق اللجام قد وَهَبْتُها لسائلٍ مرَّ بى، فلا تَتَّهِمَنَّ بها أحدًا[5].

٨٦

(١) عَارَ الفرس أى ذهب هاهنا وهاهنا، وذهب على وجهـه كأنّه مُنْفَلِتٌ. وفى ص: فعارته فرسه. [وفى هامشه: صح: عاره يعوره ويعيره أى أخذه وذهب به]. وأنت ترى أن رواية ص عارية عن الصواب، وأن حاشيته فى الهامش لامحلّ لهـا فى هذا المقام.

(٢) أى اجتمع البول فيه، فهو فى حاجة شديدة إلى تصريفه. ومنه الحديث: «لارأْىَ لحاقب ولا لحاقن» أى لمن تشتد به الحاجة للإخراج من أحد السبيلين ويكون مضطرا لحبسهما.

(٣) [أُنظر حاشـية ١ صفحة ١٢٣ من هذا الكتاب]

(٤) ص: عليه.

(٥) روى هذه الحكاية بحرفها فى "المحاسن والمساوى" (ص ٥٠٥ ــ ٥٠٦).

تغافل أنو شروان عن سرقة الجام

وهكذا يُحكَى عن أنو شِروانَ أنه قعد ذات يوم فى نيروز أو مَهْرَجَانٍ(١)، ووُضِعتْ الموائد، ودخل وجوه الناس الإيوانَ علىٰ طبقاتهم ومراتبهم. وقام المُوكَّلون بالموائد علىٰ رؤوس الناس، وكُرسِىَ بحيثُ يراهم. فلما فرغ الناس من الطعام، جاؤوا بالشراب فى آنية الفضة وجاماتِ الذهب. فشرب الأساورة وأهل الطبقة العالية فى آنية الذهب. فلما آنصرف الناس ورُفِعَتِ الموائد، أخذ بعض القوم جامَ ذهبٍ (٨٧) فأخفاه فى قَبائه(٢)، وأنو شروانُ يَلْحَظُه. فصرف وجهَه عنه. وآفتقد صاحبُ الشرابِ الجامَ، فصاح: لايَخْرُجَنَّ أحدٌ من الدار حتّىٰ يُفَتَّشَ. فقال كسرىٰ: لاتتعرّضْ لأحدٍ! وأذِنَ للناس فآنصرفوا. فقال صاحب الشراب: أيها المَلِك! إنّا قد فقدنا بعض آنيةِ الذهب. فقال الملك: صَدَقْتَ! قد أخذها مَن لا يردُّها عليك، وقد رآه مَن لا يَنِمُّ عليه. فآنصرف الرجُل بالجام(٣).

تغافل معاوية عن كيس الدنانير

وهكذا فعل معاوية بن أبى سُفْيان فى يوم عيد. وقد قعد للناس، ووُضِعت الموائد، وبِدَر(٤) الدراهم والدنانير للجوائز والصِّلات. فجاء رجلٌ من الجماعة، والناسُ يأكلون، فقعد علىٰ كيس فيه دنانير. فصاح به الخَدَمُ: تَنَحَّ، فليس هذا بموضعٍ لك! فسمع معاوية،

(١) هذه الكلمة بفتح الميم وبكسرها، والفتح أشهر، كما يدلُّ عليه المعجم الفارسى الإنكليزى لرتشاردصُن. وضبطها ياقوت بالكسر (ج ٤ ص ٦٦٨) واخترنا الفتح لجريانه على ألسنة المصريين

(٢) أُنظر الفصل الطويل المفيد المشحون بالأسانيد الذى أورده العلامة دوزى الهولندىّ على هذه الكلمة فى معجم الثياب عند العرب (ص ٣٥٢ ـ ٣٦٤) وقد قال فى آخره إن الهولنديين أخذوا هذا اللفظ عن (قبای) فى اللسان الفارسى فنقلوه إلى لغتهم وقالوا (Kabaai) للدلالة على الثوب الذى يسميه الفرنسيون Robe de chambre.

(٣) رواها بآختصار يسير جدًّا صاحب "المحاسن والمساوى" (ص ٥٠٦).

(٤) [راجع الحاشية رقم ١ ص ٣٧]. وفى ص ـ : وبذر.

فقال: دَعُوا الرَّجُلَ يقعدُ حيث انتهىٰ به المجلس. فأخذ كيسا فوضعه بين بطنه وحُجْزَة[1] سراويله، وقام. فلم يجسُر أحدٌ أن يدنُوَ منه. فقال الخادم: أصلحَ اللهُ أميرَ المؤمنين! إنَّه قد نقص من المال كِيسُ دنانيرَ. فقال: أنا صاحبُه، وهو محسوبٌ لك[2].

(٨٨) وهذه أخلاق الملوك معروفةٌ فى سِيَرِهم وكتبهم.

وإنما يَتَفَقَّدُ مثلَ هذا مَن هو دون الملك. فأمَّا المَلِك، فيجِلُّ عن كلِّ شئ ويصغُر عنده كلُّ شئ.

الردّ على قولهم: المغبون لا محمود ولا مأجور

والعامّة تضع هذا وما أشبهه فى غير موضعه. وإنما هو شئ ألقاه الشيطان فى قلوبهم وأجراه علىٰ ألسِنَتِهِم، حتّى قالوا فى نحوٍ من هذا فى البائع والمشترى: "المغبونُ لا محمودٌ ولا مأجورٌ". فحَمَلوا الجَهَلَة علىٰ المنازعة للباعة، والمشاتمة للسَّفَلَة والسُّوقة، والمقاذفة للرعاع والوُضَعاء[3]، والنظر فى قيمةِ حَبَّةٍ، والاطِّلاع فى لسان الميزان، وأخذ المعايير[4] بالأيدى.

وبالحَرَى أن يكون المغبون محمودًا ومأجورًا. اللهمَّ إلّا أن يكون قال له: اِغْبِنِّى. بل لو قالها، كانت أُكرومة[5] وفضيلة، وفَعْلة جميلة تدلُّ علىٰ كرمِ عُنصرِ القائل وطِيبِ مُرَكَّبِه.

---

(١) موضع النِّكَّة من السراويل.

(٢) رواها باختصار صاحب "المحاسن والمساوى" (ص ٥٠٦)

(٣) ص ـ: "والمفارقة للزعازع والوضعاء".

(٤) جمع معيار.

(٥) س ـ: "مكرمة". [وهما بمعنى واحد].

ولذلك قالت العرب: "السَّرْوُ التغافُلُ!"[1]

وأنت لا تجد أبدًا أحدًا يتغافل عن ماله إذا خرج، وعن[2] مبايعته إذا غُبِنَ، وعن التقصِّى إذا بُخِسَ، إلَّا وجدْتَ له فى قلبك فضيلةً وجلالةً ماتقدر على دفعها.

وكذا أدبنا نبينا (صلى الله عليه وسلم) فقال: "يَرْحَمُ الله سَهْلَ الشراء، سَهْلَ البيع، سَهْلَ القضاء، سَهْلَ التقاضى!"[3] (٨٩)

وهذا الأدب خارجٌ من قولهم: "المغبونُ لامحمودٌ ولا مأجورٌ."

كلمة معاوية

وقال معاوية فى نحوٍ من هذا: "إنِّى لأُجَرْجِرُ على الخدائع."

كلمة الحسن

وقال الحسَن (عليه السلام): "المؤمن لايكون مَكَّاسًا."

سليمان بن عبد الملك والأعرابى الذى أخذ رداءه

وفيما يُحكَى عن سليمان بن عبد الملك أنه خرج فى حياة أبيه لِمُتَنَزَّهه[4]، فبُسِطَ له فى صَحْراء، فتغدَّى مع أصحابه. فلما حان انصرافه، تشاغل غلمانه بالتَّرْحال. وجاءَ أعرابىٌّ فوجد منهم غَفْلَةً، فأخذ دُوَّاجَ[5] سليمان فرمى به على عاتقه. وسليمانُ ينظر

(١) فى سـ: "السر والتغافل". [وانظر الحاشية ٥ من صفحة ٥٧ من هذا الكتاب]. ومن المأثور عن السفاح قوله: "التغافل من سجايا الكرام". (شذرات الذهب ج ١ ص ٢١٥).

ولشاعرهم:

ليس الغبىُّ بسيِّدٍ فى قومه * لكنّ سيِّدَ قومه المتغابى.

(٢) فى الأصل: ولا عن.

(٣) صـ: "رحم الله من سَهَّل الشراء وسهّل البيع". والذى رأيتُه فى صحيح البخارىّ: "رحم الله رجلا سمحا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى". (ج ٣ ص ٥٧، طبع بولاق سنة ١٣١١)

(٤) صـ: لمتنزهه.

(٥) الدُّوَّاج هو اللحاف الذى يُلْبَس. ولعل شبيه بالملحفة المسماة الآن بالمُصَرِّيَّة. وانظر ماكتبه عليه دوزى فى قاموس الثياب (ص ١٨٦) وليس فيه تفصيلٌ يشرح المعنى. قال فى مطالع البدور: رُجد لأُمّ المعتزّ ثلاثة دواريج كانت تستعملهن، فقُوِّم الدُّوَّاج بأكثر من ألف دينار (ج ١ ص ٦٠).

إليه. فبصر به بعض حشمه، فصاح به: ألْقِ ماعليك! فقال الأعرابىّ: "لالعَمْرى! لا أُلقيه ولا كرامةَ! هـذا كُسْوَة الأمير وخِلْعته". فضحك سليمان وقال: صـدق أنا كَسَوْتُه. فمرّ كأنه إعصارُ الريح.

جعفر بن سليمان وسارق الدرّة

وأحسنُ من هـذا مافعله جعفر بن سليمان بن علىّ بالأمس، وقد عُثِرَ برجل سرق دُرّةً رائعة، أخذها من بين يديه. فطُلبتْ بعد أيامٍ فلم توجد. فباعها الرجل ببغداد، وقد كانت وُصِفتْ لأصحاب الجوهر. فأُخِذ وحُمِل إلىٰ جعفر فلما بَصُرَ به، آستحيا منه وقال: ألم تكن طلبتَ هذه الدرّة منى، فوهبتُها لك؟ قال: بلىٰ. قال: لاتعرَّضوا له! فباعها بمائتَىْ ألف درهم.[1]

✣

إكرام أهل الوفاء وشكرهم

ومن أخلاق المَلِك إكرامُ أهل الوفاء وبِرُّهم والآستنامة إليهم والثقة بهم والتقدمة لهم علىٰ الخاصّ والعامّ والحاضر والبادى.

وذلك أنه لا يوجد فى الإنسان فضيلة أكبر ولا أعظم قدرًا ولا أنبَلُ فعلا من الوفاء. وليس الوفاءُ شكرَ اللسان فقط، لأن شكر اللسان ليس علىٰ أحدٍ منه مؤونة.

وآسمُ الوفاء مشتملٌ علىٰ خِلالٍ:

فمنها ـ أنْ يَذْكُرَ الرجُلُ مَن أنعَمَ عليه، بحضرة المَلِك فَمَنْ دونه. فإن[2] كان المَلِك

(١) رواها فى "المحاسن والمساوى" (ص ٥٠٦).

(٢) سـ: "إن" صـ: "وإن". [ووضعتُ حرف الفاء لمنع التشويش فى الجملة، والآضطراب فى السياق.]

فيه سيِّئ الرأى، فليس من الوفاء أن يُعينه على سوء رأيه. فإنْ خاف سَوْط المَلك وسيفه، فأحسنُ صفاته أن يُمسِكَ عن ذكره بخيرٍ أوشرّ.

ومنها ـ المؤاساة للصاحب فى المال حتّى يقاسمه الدرهم بالدرهم والنعل بالنعل والثوب بالثوب.

ومنها ـ الحفظ له فى خَلَفه وعياله، ما كان فى الدنيا، حتّى يجعلهم إسوةَ عياله (٩١) فى الجَدْب والخِصْب.

ومنها ـ الشكر له باللسان والجوارح.

وكانت ملوك الأعاجم كلُّها، أوّلُها وآخِرُها، لا تمنع أحدًا من خاصَّتها وعامّتها شُكْرَ مَن أنعم عليها أو على أحدٍ منها وتقريظَه وذكرَ نعمه وإحسانه. وإن كانت الشريعة قد قتلته والمَلك قد سَخِط عليه. بل كانوا يَعرِفون فضيلةَ مَن ظَهَرَ ذلك منه ويأمرون بصلته وتعهُّده.

قباذ ومادح الجانى على المملكة

ويقال إن قُبادَ[1] أمر بقتل رجُلٍ كان من الطاعنين على المملكة. فقُتِل. فوقف على رأسه رجُلٌ كان من جيرانه فقال: "رحِمَك الله! إنْ كنتَ ـ ما علِمتُ ـ لَتُكْرِمُ الجارَ وتصبر على أذاه، وتُواسى أهل الحاجة، وتقوم بالنائبة! والعَجَبُ كيف وجد الشيطان فيك مَساغا حتّى حَمَلك على عصيان مَلِكك، فخرجتَ من طاعته المفروضة إلى معصيته! وقديمًا ما تمكَّن ممن هو أشدُّ منك قوةً وأثبت عَزْمًا." فأخذ الرجُلَ

(١) [أُنظر حاشية (٢) صفحة (٧٨) من هذا الكتاب].

صاحبُ الشُّرطة فحبسه. وانتهى كلامه إلى قُباذَ، فوقَّع قُباذُ: يُحْسَنُ إلى هذا الذى
(١)
شكر إحساناً فُعِلَ به، وتُرفَعُ مرتبتُه، ويُزاد فى عطائه. (٩٢)

* وهكذا فعل سعيد بن عمرو بن جَعْدة بن هُبَيرة[٢] [المخزومىّ]، حين حُمِل رأس
(٣)
مَرْوان [الجعدىّ] إلى أبى العبّاس [السفاح] بالكوفة، فعقد له مجلسا وجاءُوا
بالرأس. فقام سعيد بن عمرو بن جَعْدة فأكبَّ عليه قياما طويلا، ثم قال: هذا رأس

---

(١) رواها فى "المحاسن والمساوى" (ص ١١٤).

(٢) كان من رجالات مروان الجعدىّ، واشترك معه فى وقعة الزاب. (الطبرىّ سلسلة ٣ ص ٢٠٤ و ٢٢٤؛ والأغانى ج ١١ ص ٧٥؛ وابن الأثير فى حوادث سنة ١٤٥).

(٣) هو آخر خلفاء بنى أُميّة بالمشرق.

وُلد سنة ٧٢ وقيل سنة ٧٦. تولّى لهشام ومَن بعده من الخلفاء الجزيرة وأرمينية وأذربيجان لغاية سنة ١٢٦. وفى هذه السنة الأخيرة أظهر الخلاف على يزيد بن الوليد. ثم سار فى سنة ١٢٧ إلى الشام وحارب سليمان بن هشام ودعا الناس إلى مبايعته. وتمّت له البَيْعةُ بدمشق فى تلك السنة. وهو الذى سَمّى يزيد ابن الوليد بالناقص. وكانت وفاته بأرض مصر فى سنة ١٣٢ هجرية. [وانظر صفحة ١٧٥ من هذا الكتاب].

وهو المعروف فى كتب التواريخ بمروان الفَرَس، ومروان الحمار، ومروان الجعدىّ. سماه العباسيون الذين خرجوا عليه وقلبوا دولته بالحمار فى نظير تسميته بالفرس. وقيل إنه لُقِّبَ بالحمار لأنه كان لا يخف له لبد فى محاربة الخارجين عليه. (كان يصل السير بالسير ويصبر على مكاره الحروب. ويقال فى المثل. "فلان أصبر من حمار فى الحروب" فلذلك لقب به). وقيل إن العرب تُسَمِّى كُلَّ مائة سنة حمارا. (فلما قارب مُلك بنى أُميّة مائة سنة لقبوا مروان بالحمار لذلك). وربما كان ذلك لفِراره على حمار (يدلُّ على ذلك قول رُؤْبة ابن العجاج فى مدح السفّاح:

مازال يأتى الأمر من أقطاره * عن اليمين وعلى يساره،
مُشَمِّرًا لا يُصْطَلَى بناره * حتّى أقرَّ المُلك فى قَراره
وفَرَّ مَرْوانُ على حِماره.) =

أبى عبد الملك[1]، خليفتِنا بالامس، رحمه الله! فوثب أبو العبّاس فطعن فى نَحْرِه[2]. وآنصرف آبن جعدة إلى منزله، وتحدّث الناس بكلامه. فلامه بنوه وأهله، وقالوا:

= وأما تسميته بالجعدىّ فنسبة إلى أخذه (حين كان واليا على الجزيرة) بتعاليم مؤدِّبه الجعد بن درهم مولى سُوَيد بن غَفَلة. وقع هذا الرجل إلى الجزيرة فأخذ برأيه جماعةٌ من أهلها. فلما حارب الخراسانيون مَرْوان نسبوا إلى الجعد ما رأوه من سعة علمه. وكان الناس يذمُّون مروان بنسبته إلى الجعد: وكان الجعد من شيوخ المعتزلة وأظهر مقالته بخلق القرآن والقدر والاستطاعة وغيرذلك أيام هشام. ومن أقواله: "إذا كان الجماع يتولّد منه الولد، فأنا صانع ولدى ومدبِّره وفاعله، لافاعلَ له غيرى، وإنما يقال إن الله خلقه مجازاً لاحقيقةً". ومن قوله: "إن كان النظر الذى يوجب المعرفة، تكون تلك المعرفة فعلا لافاعل لها". وقيل إنه كان زنديقا. وعظه ميمون بن مهران، فقال: "للشَّاةُ قُبَاذ أحبُّ إلىَّ مما تدينُ به! فقال له مهران: قتلكَ اللهُ، وهوقاتلك!" وشهد عليه مهران. فطلبه الخليفة هشام حتى ظفر به. فأرسله إلى خالد القسرىّ، وهو أمير العراق، وأمره بقتله. فحبسه خالد ولم يقتله. فبلغ الخبر هشاما فكتب إلى خالد يلومه ويعزم عليه أن يقتله. فأخرجه خالد من الحبس فى وَثاقه. فلما صلّى العيد يوم الاضحى قال فى آخر خطبته: "إنصرفوا وضحُّوا يَقبَلِ الله منكم، فإنى أريد أن أُضحِّىَ اليومَ بالجعد بن درهم فإنه يقول: ما كلَّم الله موسى ولا آتَّخذ إبراهيم خليلاً! تعالى الله عما يقول الجعد عُلُوّاً كبيرا!" ثم نزل وذبحه.

أُنظر الطبرىّ سلسلة ٢ (ص ٩٤٠ و ١٥٦٢ و ١٨٢٥ و ١٨٧٠ و ١٨٧٦)؛ وآنظر الأغانى (ج ١٨ ص ١٢٣ وج ٢١ ص ٨٧)؛ وآنظر "المحاسن والمساوى" (ص ٢٣٩)؛ والفِصَل فى الملل والأهواء والنحل (ج ٤ ص ٢٠٢)؛ وأنساب السمعانى (ص ١٣١)؛ وآبن الأثير (ج ٥ ص ١٩٦ و ١٩٧ و ٣٢٩)؛ وسبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب (ص ٨١)؛ والفَرق بين الفِرَق لعبد القاهر البغدادىّ، طبع القاهرة سنة ١٩١٠ (ص ١٤ و ٢٦٢).

(١) هو كنية مروان الجعدىّ، باسم آبنه.

(٢) أى فى حلقه.

عرَّضْتنا ونفسَك للبوار ! فقال : آسكتوا ، قبَّحكم الله ! ألستم الذين أشاروا علىّ بالأمس بحرّان بالتخلُّف عن مَرْوان ، ففعلتُ فى ذلك غيرَ فعل أهل الوفاء والشكر ؟ وما كان ليغسِل عنى عار تلك الفَعلة إلّا هذه . فإنما أنا شيخٌ هامَةٌ[1] ، فإنْ نجوتُ يومى هذا من القتل ، مُتُّ غدًا . قال : فجعل بنوه يتوقَّعون رُسُل أبى العبّاس أنْ تطرُقه فى جوف الليل . فأصبحوا ولم يأتِه أحدٌ . وغدا الشيخُ فإذا هو بسليم بن مُجالد . فلما بُصر به ، قال : يا ابن جعدة ! أَلَا أُبشِّرك بجميل رأْى أمير المؤمنين ؟ إنه ذكر فى هذه الليلة ما كان منك ، فقال : "والله ! ما أخرج ذلك الكلامَ من الشيخ إلا الوفاءُ . وهُوَ أقربُ منا قرابةً ، وأَمسُّ بنا رَحِماً منه بمرْوان ، إنْ أحسنَّا إليه !" قال : أجَلْ ، والله ![2]

---

(١) تقول العرب : فلان هامَةُ ، أى يصير فى قبره . ومنه قول كُثيِّر :

فإنْ تَسْلُ عنك النفسُ أوْ تَدَعِ الهوَى ، * فباليأس تَسْلُو عنك ، لا بالتجلُّدِ .

وكُلُّ خليلٍ راءَنى فهْوَ قائلٌ : * مِنَ أجْلِك هذا هامَةُ اليوم أوْ غَدِ .

يقال : فلان هامة اليوم أو غد ، أى يموت فى يومه أو غده . ويقال ذلك الشيخ إذا أسَنَّ ، والمريض إذا طالت علَّته ، والمحتضر لمدة الآجال . وفى الحديث أن أبا حذيفة بن اليمان قال لثابت بن وقش الأنصارى وقد تخلف معه فى غزوة أُحُد : "انهضْ بنا ننصُرْ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنما نحن هامة اليوم أو غدٍ" . (وكانا قد أسَنَّا) . ومرجع ذلك لأعتقاد العرب فى مسألة الهامة . (راجع "الكامل" للمبرد ص ٢١١ و ٣٨٧ ؛ وانظر "الأغانى" ج ١٣ ص ١٦٥)

(٢) هذه الفقرة المحصورة بين نجمتين ** منقولة عن صه . وقد رواها فى "المحاسن والمساوئ" (ص ١١٩ و ١٢٠)

كتاب قيس بن سعد آمين عبادة إلى معاوية

وهكذا فَعَلَ قَيْس بن سعد بن عُبادة [الأنصارىّ] بِمُعاوية بن أبى سُفيان، حين دعاه إلىٰ مُفارقة علىّ بن أبى طالب والدخولِ فى طاعته. فكتب إليه قيس بن سعد: "يا وثن آبن وثن! تكتُبُ إلَىَّ تدعونى إلىٰ مُفارقة علىّ بن أبى طالب والدخول فى طاعتك وتخوّفنى بتفرّق أصحابه عنه وإقبال الناس عليك وإجفالهم إليك! فوالله الذى لاإله غيره! لو لم يبقَ له غيرى ولم يبقَ فى غيره، ماسالمتُك[1] أبدا، وأنت حَرْبه، ولا دخلتُ فى طاعتك وأنت عدوُّه، ولا آخترتُ عدوّ الله علىٰ وليِّه، ولاحزبَ الشيطان علىٰ حزبِ الله. والسلام!"

الإسكندر والمتقربون إليه بقتل ملكهم

وفى سيرة الإسكندر ذى القرنين أنه لما قصد نحو فارِس، تلقّاه جماعة من أساورتهم برأس ملكهم، يتقرّبون إليه به. فأمر بقتلهم لسُوء رعْيهم وقلّة شكرهم لملكهم ومَن أنعم عليهم. وقال: مَن غدر بملكه كان بغيره أغْدَرَ.

شيرويه ومادحه على قتل أبرويز

(٩٣)

وفيما يُحكىٰ عن شيرويه أن رجُلا من الرعيّة وقف له يوما، وقد رَجَعَ من الميدان، فقال: "الحمد لله الذى قتل أبرويز[2] علىٰ يديك، وملّكك ما كنتَ أحقَّ به منه وأراح آل ساسان من جَبَرِيَّته[3] وعُتُوّه وبُخله ونَكَده. فإنّه كان ممن يأخذ بالحُبّة[4]،

---

(١) أُنظر فى المسعودىّ مكاتبات أُخرى جرت بينهما (ج ٥ ص ٤٥).

(٢) [أُنظر حاشية ١ صفحة ٩ من هذا الكتاب.]

(٣) صـ: «جبروته». والجَبَرية القهر والغلبة. وفيها لغات كثيرة ذكرها فى القاموس وفى كامل المبرد. وفى خطبة عُتْبة بن غَزْوان: "وإنه لم تكن نُبُوّة إلا تناسختها جَبَرِيّة". أى مُلك غالب وعضوض. [أنظر "البيان والتبين" ج ١ ص ١٧٢]

(٤) صـ: بالإحنة.

ويقتل بالظنّ، ويُخيف البريءَ، ويَعمَل بالهوىٰ". فقال شيرويه للحاجب: اِحْمِلْهُ إليّ. فَحُمِل. فقال له: ـ

ـ كم كانت أرزاقك فى حياة أبرويز؟

ـ كنتُ فى كفاية من العيش.

ـ فكم زِيدَ فى أرزاقك اليومَ؟

ـ ما زِيدَ فى رزقى شئٌ.

ـ فهل وَتَرَكَ[1] أبرويز، فانتصرتَ منه بما سمِعتُ من كلامك؟

ـ لا.

قال ـ فما دعاك إلى الوقوع فيه، ولم يقطع عنك مادّة رزقك ولا وَتَرَك فى نفسك؟ وما للعامّة والوقوعَ فى الملوك، وهم رعيّة؟

فأمر أن يُقْتَرَعَ لسانُه من قفاه، وقال: "بحقّ ما يقال إن الخَرَسَ خَيْرٌ من البيان فيما لا يَجِبُ."[2]

المنصور والضارب رأس الخارج عليه بعد قتله

وحدَّثنى صَباح بن خاقان[3]، قال: حدَّثنى أبى أنّ أباجعفر [المنصور] لما أُتِىَ برأس

(١) وتَرَه حقَّه أى نقصه. (صحاح) [حاشية فى صـ]

(٢) روى هذه الحكاية بالحرف فى "المحاسن والمساوى" (ص ٤١١).

(٣) هو صباح بن خاقان المِنْقَرىّ. كان نديما لمصعب الزبيرى، وكان من مشايخ المروءة والعلم والأدب. وكان بين صباح الفرزدق وجرير يفضلهما على الأخطل (أغانى ج ٧ ص ١٧٤ وج ١٥ ص ١٥٩ و١٦٠). وكان هو ومصعب جليسين لا يكادان يفترقان وصديقين متواصلين لا يكادان يتصارمان (كامل المبرد ص ٤٦٠). وقد أمتدحه إسحاق النديم (المشتبه فى أسماء الرجال للذهبى ص ٣١٠).

إبراهيم بن عبدالله فوُضِع[1] بين يديه، جاء بعض أولئك الرُّوَيْدِيَّة[2] فضرب الرأس بعمودٍ كان فى يده. فقال المنصور للمُسَيَّب[3]: دُقَّ[4] وجهه! فدقَّ المُسَيَّب أنفَهُ. ثم قال [المنصور] له: يا ابن اللخناء! تجيء إلىٰ رأس ابن عَمِّى (وقد صار إلىٰ حالٍ لا يدفع ولا ينفع) تضرِبه بعمودك، كأنك رأيتَه وهو يُريدُ نفسى فدفعتَه عَنِّى. اُخْرُجْ إلىٰ لعنة الله وأليم عذابه!

(٩٤)

المنصور ومادح هشام الأموى

ويقال إن أبا جعفر وجَّه إلىٰ شيخٍ من أهل الشام، كان من بِطانة هشام، فسأله عن تدبير هشام فى بعض حروبِه الخوارِجَ. فوصف له الشيخ مادبَّر، فقال: "فعل (رحِمَه الله) كذا وصنع (رحمه الله) كذا." فقال المنصور: قُمْ، عليك لعنة الله! تَطَأُ بِساطى، وتترحَّمُ علىٰ عدوّى؟ فقام الرجُل، فقال وهو مُوَلٍّ: إنَّ نعمةَ عدوِّك لَقِلادةٌ فى عُنُقِ لا يَرْعُها إلَّا غاسِلى. فقال له المنصور: ارجِعْ ياشيخُ! فرجَعَ. فقال له: أشهَدُ

(١) هو إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب.

(٢) هكذا فى ص، ص ـ. ولا يمكن أن تكون الكلمة محرّفة عن الراوندية لأنهم قاموا على المنصور فى سنة ١٤٠، وإبراهيمُ بن عبد الله كان قتله فى سنة ١٤٥. ولم أتمكن بعد شدّة البحث وكثرة التنقيب فى كتب التواريخ واللغة من الوقوف على معناها أو تقويمها. ولعلها تكون "الدورية" بمعنى أصحاب الدور من العساكر وأرباب الحرس، أو الزردية بمعنى لابسى الزرد. ولكنى لست على ثقة من ذلك. والذى فى ابن الأثير: رجل من الحرس (ج ٥ ص ٤٣٧). وروى الطبرىّ هذه الحكاية على وجه آخر ووصف الرجل بأنه من السيّاقة (سلسلة ٣ ص ٤١٦).

(٣) هو المُسَيَّب بن زهير الضبّىّ وهو من ولد ضرار بن عمرو (وبنو ضرار من سادة ضبة). كان على شرطة أبى جعفر، وولاه المهدىّ خراسان. وولىَ شرطة موسى الهادى. وكانت هذه الوظيفة فى أبنائه لهارون والأمين والمأمون. (معارف ابن قتيبة ص ٢٠٠)

(٤) ص ـ: سُؤ.

أنك نهيضُ حُرَّةٍ وغراسُ شريف! عُدْ إلىٰ حديثك! فعاد الشيخ إلىٰ حديثه حتّٰى إذا فَرَغَ، دعا له بمالٍ ليأخذه فقال: "والله ياأمير المؤمنين، مابى من حاجةٍ إليه! ولقد مات عنّى مَن كنتُ فى ذكره آنفا، فما أحْوَجَنى إلىٰ وقوفٍ علىٰ باب أحدٍ بعدَهُ. ولولا جلالةُ عزِّ أمير المؤمنين وإيثارُ طاعته ماليَسْتُ لأحدٍ بعده نعمةً." فقال المنصور: "مُتْ إذا شئْتَ، فالله أنت! فلو لم يكن لقومك غيرك، لكنتَ قد أبقيتَ لهم مَجْدًا مُخَلَّدًا". ويقال إن الرجُل كان من شَيْبَانَ.(١)

٩٥

✣

الأدب عند ما يتكلم الملك

ومن حقّ الملك ـ إذا حضره سُمَّارُه أوْمُحَدِّثوه ـ أنْ لايُحَرِّكَ أحدٌ منهم شَفَتَيْه مبتدئًا، ولا يقطَعَ حديثَه بالاعتراض فيه، وإن كان نادرًا شهيًّا، وأنْ يكون غرضُهم حُسْنَ الاستماع، وإشغالَ الجوارح بحديثه. فإذا فرغ من الحديث فنظر إلىٰ بعضهم، فقد أذِنَ له أنْ يُحَدِّثَه بنظير ذلك الجنس من الحديث. وليس له أن يأخذ فى غير جنس حديثه.

الأدب فى تحديث الملك

وليس لمن حدّث المَلِكَ أن يُفسِدَ ألفاظَه وكلامَه، بأنْ يقولَ فى حديثه: "فاسمعْ منى" أو "إفهمْ عنى" أو "ياهذا" أو "ألاترىٰ" فإنّ هذا وماأشبهَه عِىٌّ من قائله وحَشْوٌ فى كلامه وخروجٌ من بَسْط اللسان(٢) ودليلٌ على القَدَامة(٣) والغثاثة(٤). وليكنْ كلامُه

(١) نقل المسعودىّ هذه الحكاية بتصرف يسير (ج ٦ ص ٦٧ و ١٦٨). ونقلها بالحرف الواحد فى "المحاسن والمساوى" (ص ١٢٠). وكان المنصور فى أكثر أموره وتدبيره وسياسته متّبعا لهشام فى أفعاله، لكثرة مايستحسنه من أخبار هشام وسيرته. (شذرات الذهب ج ١ ص ١٨١)

(٢) سـ: وخروج من بسط الزمان، صـ: وخروج بربط اللسان.

(٣) القَدَامة العِىُّ عن الحجة، والكلام فى ثقل ورخارة وقلة فهم.

(٤) هى سوء الخلق. ويعبّرعنها العامّةُ فى أيامنا هذه بقولهم: الغتاتة. ومنها فلان غتوت.

كلامًا سهلًا، وألفاظُه عذبةً مُتَّصلةً، وسَقَطُ كلامِه قليلًا. فإذا فرغ من الحديث، فليس له أنْ يصلَهُ بحديثٍ آخَرَ، وإنْ كان شبيها بالحديث الأوّل، حتّى يرىٰ أنَّ المَلك قد أقبَلَ عليه بوجهه وأصغىٰ إلىٰ حديثه. [فإن أعرض] لشغل يعرض له، (٩٦) [فليس له] أن يمرّ فى حديثه وأن يصلَ كلامه، فيحتاج الملك إلىٰ الإصغاء إليه ويحتاج إلىٰ التشاغل بما عرض له، فيجمَعُ عليه أمرين. فإنَّ هذا سُخْفٌ من فاعله وخروجٌ من الأدب. ولكن لِيُنْصِتْ مُطْرِقًا: فإنِ اتَّصل شُغل المَلك، تَرَكَ الحديث؛ وإن انقطع فنظر إليه، فقد أَذِنَ له فى إتمامه وإعادته.

***

عدم الضحك من حديث الملك

ومن حقِّ المَلك أن لا يُضْحَكَ من حديثه إذا حَدَّثَ، لأن الضَّحِك بحضرة الملك جُرْأةٌ عليه، ولا يُظْهَرَ التعجُّب بفائدة حديثه. وإنما هذا إلىٰ المَلك. فإنْ ضَحِكَ المَلك من الحديث وأظهر السرور به، فذاك غرضُ حديثه، وإليه قَصَدَ. وإن سكتَ، فلم يكن فى الحديث ما يُلهيه ويُطربهُ أو يستفيدُ منه فائدةً، كان قد سَلِمَ من العيب، إذ لم يضحك ولم يعجب.

***

عدم إعادة الحديث مرتين على الملك

ومن حقِّ المَلك أنْ لا يُعاد عليه الحديث مرَّتين، وإن طال بينهما الدهر وغَبَرَتْ بينهما الأيام، إلا أن يَذْكُرَه المَلك. فإن ذَكَرَهُ، فهو إذْنٌ منه فى إعادته.

كلمة روح بن زنباع فى المعنى

(٩٧) وكان رَوْحُ بنُ زِنْبَاع (١) يقول: أقمتُ مع عبد الملك سبعَ عشرة سنةً من أيامه، ما أعَدْتُ عليه حديثًا.

(١) أنظر الحاشية ١ صفحة ٦٠ و١١٧ و١٣٠ من هذا الكتاب.

كلمة الشعبي في المعنى

وكان الشَّعبيُّ[1] يقول: ما حدّثتُ بحديثٍ مرّتين لرجلٍ بعينه قطُّ.

كلمة السفاح

وكان أبو العباس[2] يقول: مارأيتُ أحدا أغزر علمًا من أبي بكر الهُذَلِيّ، لم يُعِدْ عليّ حديثا قطُّ.

كلمة ابن عياش في المعنى

وكان ابن عيَّاش[3] يقول: حدّثتُ المنصور أكثر من عشرة آلاف حديث. فقال لي ليلةً، وقد حدّثتُه عن يومِ ذي قارٍ[4]: قد اضْطُرِرْتَ إلى التَّكرار، يا ابن عياش! قلتُ: ما هذا منها، يا أمير المؤمنين. قال: أَمَا تذكر ليلة الرعد والأمطار، وأنت تحدّث عن يوم ذي قار، فقلتُ لك: مايومُ ذي قارٍ[5] بأصعبَ من هذه الليلة؟

(١) هو فقيه العراق وأشهر من أن يذكر.

(٢) يعني السفاح رأس الدولة العباسية.

(٣) انظر حاشية ٣ صفحة ٥٩ من هذا الكتاب.

(٤) ذو قار هو اسم ماء لبني بكر بن وائل، بالقرب من الكوفة. حدثت فيه معركة هائلة بين العرب والعجم قبل البعثة النبوية، وقيل بين غزوتَيْ بَدْر وأُحُد. انتصر فيها العرب على العجم انتصارا باهرا تغنّى به شعراؤهم وتحدّث به أخبارُيُّوهم. ويُسمّى هذا اليوم أيضا بيوم الجِنْو، ويوم جِنْو ذي قار، ويوم جِنْو القراقر، ويوم بطحاء ذي قار، ويوم قراقر، ويوم الجبابات، ويوم ذات العجروم. وكلهن مواضع حول ذي قار. ولكنه الأشهر والأكثر في الاستعمال.

(٥) القار (بتخفيف الراء) هو في لغة العرب هذا الأسود (الزفت) الذي تُطْلَى به السُّفُن، وهو شجر مرّ أيضا (عن تاج العروس). وفي لغة الفرس يدل على البياض وعلى السواد (لأنه عندهم من أسماء الأضداد)؛ وقد أطلقوه من باب التوسع على الثلج وعلى الزفت بسبب لونيهما. وليس يستفاد من الحكاية التي أوردها الجاحظ (مع ملاحظة المنصور على جليسه) أن المعركة وقعت في أيام الشتاء، ولا أنه ربما كان تسميتها بيوم ذي قار علاقة بنزول الثلج وأن الموضع ربما سمي بهذا الاسم لهذه المناسبة. والحقيقة أن اللفظ عربيّ صميم لأنه اسم ماء =

مواطن إعادة الحديث على الملوك

وكان الشَّرْقِيُّ بنُ القُطَامِيِّ[1] يُعيد الحديث مرارًا. وذلك أنَّ أكثر أحاديثه مضاحيكُ، وكانت تُعجِب المهديّ فيستعيده.

= لبنى بكر بن وائل كما ذكرنا فى الحاشية السابقة، ولأن من نظر إلى الخريطة الجغرافية يتبين له أن عرض هذا المكان مما لا يقع فيه الثلج. وفوق ذلك فالمعلومات التاريخية تدل على أن هذه الحرب وقعت فى أيام القيظ. يدل على ذلك قول التغلبيّ الذى يريد هلاك بكر بن وائل، حينما آستشاره كسرى أبرويز فى أمرهم: "أمهلهم حتى يقيظوا ويتساقطوا على ذى قار، تساقُطَ الفَرَاش فى النار. فتأخذهم كيف شئتَ" (ابن الأثير ج ١ ص ٣٥٧). ويؤيد ذلك ويوضحه مارواه صاحب العقد الفريد (ج ٣ ص ١١٣) فقد أورد حديث التغلبيّ مع كسرى هكذا:

" — ياخيرَ الملوك! ألا أدُلُّك على غِرَّة بكر؟

— بَلَى!

— أقِرَّها، وأظهِر الإضراب عنها حتى يُجلِيَها القيظُ ويُدنِيَها منك. فإنهم لو قاظوا، تساقطوا عليك بما لهم فى وادٍ يقال له ذو قار، تساقُطَ الفَرَاش فى النار."

وإنما الذى أشار إليه المنصور هو آشتداد الأمر وحرج الحال وآصطلام الحرب، كما كانت ليلة شديدة برعدها ومطرها.

(أُنظر التفصيل عن تلك الواقعة وسببها فى معجم البلدان ج ٤ ص ١٠ — ١٢؛ "والأغانى" ج ٢٠ ص ١٣١ — ١٤٠؛ "والعقد الفريد" ج ٣ ص ١١٣ — ١١٦؛ "وابن الأثير" ج ١ ص ٣٥٢ — ٣٥٨؛ وآنظر "صبح الأعشى" ج ١ ص ٢٣٦؛ "وتاج العروس" فى ق و ر.)

(١) سماه فى القاموس شرق بن القطاميّ. وفى شرحه عن بعض أهل اللغة أنه بفتح الراء. والقطاميّ بفتح القاف فى لغة قيس وعند سائر العرب بالضم.

وهو الوليد بن الحُصَيْن الكلبي. والشرقُ لقبه، كما أن القَطاميّ لقب أبيه. كوفيٌّ وافر العلم والأدب، وآشتهر بمعرفة الأنساب ورواية الأخبار والدواوين. ولكنه فى الحديث محدود من الضعفاء. كان =

وكان ابن دَأْبٍ[1] إذا حدّث موسى أمير المؤمنين بالحديث، أعاده عليه فى القابلة حتّى يحفظه.

(٩٨) ويقال إنه لم يُسامِر الخلفاءَ أحدٌ كان أنبل من عيسى بن دَأْبٍ، ولا أتمّ صنعةً ولا أحسنَ ألفاظا ولا أفكهَ مجلسا ولا أعظمَ أُبَّهَة وقدْرًا منه. وكان عيسى بن دأْب يتّكئُ فى مجلس أمير المؤمنين.

= صاحب سَمَر. أقدمه أبو جعفر المنصور ليعلّم ولده المهدىّ. وقد سأله: "غلامَ يؤتى المرء؟ فقال: أصلح الله الخليفة! على معروف قد سلف، أو مثله يؤتنف، أو قديم شرف، أو علم مُطَّرَف." فضمّه المنصور إلى المهدىّ حين خلّفه بالرَّىّ، وله معه هناك حديث ظريف عن الغريّين (ساقه فى "مروج الذهب" ج ٦ ص ٢٥١ — ٢٥٦، وأورده ياقوت برواية أخرى فى "معجم البلدان" ج ٣ ص ٧٩١ — ٧٩٢). وله كتب فى التاريخ والأنساب. روى عنه المسعودىّ وياقوت والبلاذرىّ. وله قصيدة فى الغريب. سأله رجل ذات يوم عمّا كانت تقرؤه العرب فى صلاتها على موتاها. فقال: لا أدرى. فقال له الرجل: كانوا يقرؤن:

ما كنتَ وكوا كا ولا بزَوَنَّك * رُوَيدك حتى يعنف الخلق باعثُهْ

فحدّث بذلك فى المقصورة يوم الجمعة. (انظر "كتاب الفهرست" ص ٩٠ و ١٧٠ و ٣٠٦ و"نزهة الألباء" ص ٤٢ — ٤٣ وابن قتيبة فى "المعارف" ص ٢٦٨. وقد صحّحتُ البيت عن "لسان العرب" فى مادتى زنك، وكك).

(١) هو عيسى بن يزيد بن بكر بن دأب، ويكنى أبا الوليد. (ودأب مأخوذ من قولهم: مازال هذا دأبه وديدنه وعادته ودينه أى فعله الذى لا يفارقه). كان هو وأبوه وأخوه من العلماء بأخبار العرب وأشعارهم. وكان عيسى شاعرا فوق ذلك. وكان يضع بالمدينة الشعر وأحاديث السَّمَر وكلامًا يُنْسب إلى العرب. وكان أكثر أهل الحجاز بل ومعاصريه أدبا وعلما وعذوبة لفظ ومعرفة بأخبار الناس وأيامهم؛ وكان لنديمه المفاكهة، طيّب المسامرة، كثير النادرة، جيّد الشعر، حَسَن الاتّزاع له. وهو من قلّة الأخبار ونُقّاد الأشعار. حظِىَ عند الهادى حظوة لم تكن لأحد قبله. وبلغ من تيهه على الخليفة أنه كان يأكل ولا يتغدّى معه. قيل له فى ذلك، فقال: أنا لا أتغدّى فى مكان لا أغسل يدىَّ فيه. فقال له الهادى: فتغدَّ! فكان الناس إذا تغدّوا تغدّوْا لغسل أيديهم، وابنُ دأْب يغسل يديه بحضرة الخليفة. وبلغ من تيهه وحذقه عليه أيضا أن الخليفة كان يدعو له بما يتّكئ عليه فى مجلسه (وما كان يفعل ذلك بغيره ولم يكن عنده أحدٌ يطمع منه بذلك). =

ولم يكن هـذا لأحد، غير أنه يُحكَى أن رَوْح بن زِنْبَاع مَرِض فكان يدعو له عبدُ الملك بن مَرْوان بِمُتَّكَإٍ.(١)

* * *

الادب فى تحديث الملك

وعلى المحدِّث للملك أنْ لا يعجَلَ فى كلامه، وأن يُدمِج(٢) ألفاظه، ولا يُشير بيده،

= وكان يقول له: "ما استطلت بك يوما ولا ليلا، ولا غِبتَ عن عينى إلا تمنَّيتُ أن لا أرى غيرك". أمر له مرة بثلاثين ألف دينار. فعاكسه الحاجب فى قبضها، فتركها. ثم رآه الهادى، وليس معه إلَّا غلام واحد، فأخذ عليه عدم ظهور النعمة فيه. فلما دخل إليه عرَّض له بذلك وقال له: "أرى ثوبك غسيلا، وهذا شتاء يحتاج إلى الجديد." فقال: ياعمِّ قصير. فقال: وكيف، وقد صرفنا إليك مافيه صلاح شأنك؟ فقال: ماوصل إلىّ. فدعا صاحب بيت المال واستحضر الثلاثين ألف دينار وحملها بين يديه.

وكان كثيرا مايدعوه ويسأله إنشاد الأبيات من أشعر ماقالت العرب. وكان يروى له الأخبار (منها حديث عن غلام سندىّ مع مولاه، ساقه المسعودىّ فى ج ٦ ص ٢٦٤ — ٢٦٥ وصاحب "المحاسن والمساوى" (ص ٦١٣ — ٦١٤). والأبشيهىّ فى "المستطرف" (ج ٢ ص ٦٥)؛ وصاحب "تنبيه الملوك والمكايد" (ص ١١٦ — ١١٧). ومنها حديث عن عيوب مصر وفضائل البصرة والكوفة، ساقه المسعودىّ أيضا فى الجزء السادس (ص ٢٧٠ إلى ٢٧٧). وقد أخذ عليه خلف الأحمر هفوة فقال فيه: "العجب من أين دأب! والله لقد طمع فى الخلافة حين ظن أن هذا يُقبل منه." وقد هجاه ابن مناذر الشاعر الفصيح المقدَّم فى العلم باللغة، لأنه قال فيه قولا قبيحا. وكان خَلَف الأحمر ينسب إليه الكذب. وقالوا إنه كان يتشيَّع ويضع أخبارا لبنى هاشم. (انظر "كتاب الفهرست" (ص ٩١)؛ و"الأغانى" (ج ٥ ص ١٥٨ وج ٨ ص ١٠٤ و ١٠٦ وج ١١ ص ٦٩ وج ١٧ ص ٢٤ وج ١٩ ص ٤٨)؛ وانظر ابن الأثير ج ٦ (ص ٧٢ — ٧٣)؛ وانظر أيضا "مروج الذهب" (ج ٥ ص ١١٨ وج ٦ ص ١٢٨ و ٢٦٣)؛ وانظر "المعارف" لابن قتيبة (ص ٢٦٧)؛ و"كتاب الاشتقاق" لابن دريد (ص ١٠٦)؛ و"كامل المبرِّد" (ص ١٨٦ و ٢١٢)؛ و"المحاسن والمساوى" (ص ٢٠٧ — ٢٠٨)؛ والطبرىّ سلسلة ٣ (ص ٥٨٩)؛ و"شرح الحماسة" (ص ٢٠٠)؛ و"البيان والتبيين" ج ١ ص ٢٤ و"تاج العروس" فى دأب. وله ترجمة وافية فى "معجم الأدباء" لياقوت روى هذه الأحوال صاحب "محاسن الملوك" بالحرف الواحد عن الجاحظ دون أن ينسبه (ص ٢٤).

(١) دخل محمد بن عمران على المأمون ذات ليلة، فجعل يأمره وينهاه، ثم دعا له بمُتَّكإٍ، فقال: أُعيذك بالله، ياأمير المؤمنين! ما كنتُ لأتَّكئ فى مجلسك! فقال له: إن على قلبك من ذلك ثِقْلا ومؤونة، فأردنا أن يستريح بدنك ليفرُغ لنا قلبك. ("مطالع البدور" ج ١ ص ١٠)

(٢) من قولهم: أدمج الحبل أجاد فتله، وقيل: أحكم فتله فى رقّة. (عن تاج العروس)

ولا يُحرِّك رأسه، ولا يزحَف من مجلسه، ولا يُراوح بين قَعْدته، ولا يرفع صوتَه، ولا يلتفت يمينًا ولا شِمالًا، ولا يُقبِل على غير المَلك بملاحظته، ولا يكون غرضُه أنْ يسمَعَ حديثَه أو يفهَم عنه سِواهُ.

+ +
+

أمارات الملوك لمجلسائهم بالانصراف

ومن حقِّ الملك — إذا تثاءب أو ألقى المِرْوحة أو مدّ رجليْه أو تمطّى أو اتّكأ أو كان في حالٍ فصار إلى غيرها مما يدلُّ على كسله[1] أو وقت قيامه — أن يقوم كلُّ من حضره.

وكان أردشير بن بابك اذا تمطّى، قام سُمّاره.

وكان الأَرْدَوَان[2] الأحمر له وقت من الليل وساعات تُحصى. فإذا مضت، جاء الغلام بنعله، فقام من حَضَرَه.

*وكان يُستاسِف إذا دلك عينيه، قام من حضره.

وكان يزدجرد الأثيم إذا قال: "شَبْ بِشُدْ"[3]، قام سُمّاره.

وكان بهرام جور إذا قال: "خُرَّم خُفْتار"[4]، قام سُمّاره.

وكان قُباذ إذا رفع رأسه إلى السماء، قام سُمّاره.*[5]

وكان سابور إذا قال: "حسبك يا إنسان!" قام سُمّاره.

---

(١) صـ: كلّه. (بمعنى كلاله)

(٢) لعل الصواب: "الأصغر". [وانظر الحاشية ٦ من صفحة ٢٩ وصفحة ١٥١ من هذا الكتاب]

(٣) جملة فارسية معناها: صار الليل. وفي هامش صـ: يقول ذهب الليل.

(٤) جملة فارسية معناها: نام مسرورًا (؟)

(٥) هذه الفقرات الأربع المحصورة بين النجمتين * * منقولة عن صـ.

وكان أنوشروان إذا قال: "قرّت أعينكم!" قام سُمّاره.[١]

وكان عمر بن الخطّاب إذا قال: "الصلاة!" قام سُمّاره.[٢] وكان ينهىٰ عن السَّمَر بعد صلاة العِشاء.

وكان عثمان إذا قال: "العزة لله!" قام سُمّارُه.

وكان معاوية إذا قال: "ذهب الليل!" قام سُمّاره ومَن حضره.[٣]

وكان عبد الملك إذا ألقى المِخْصَرة،[٤] قام مَن حضره.[٥]

وكان الوليد اذا قال: "أستودعكم الله!" قام مَن حضره.[٦]

وكان الهادى إذا قال: "سلام عليكم!" قام مَن حضره.

وكان الرشيد إذا قال: "سبحانك اللهم وبحمدك!"[٧] قام سُمّارُه.

---

(١) وكان كيشاسف يدلك عينه، ويزدجرد يقول: شب بشدّ (أى مضى الليل)؛ وبهرام يقول: خُرّم خوش باد (أى كُنْ مسروراً)؛ وأبرويز يمدّ رجليه؛ وقباذ يرفع رأسه إلى السماء. (عن "محاضرات الراغب" ج ١ ص ١٢١. والتفسير العربىّ الاوّل عن المرحوم محمد عارف باشا فى حاشية "المحاضرات")

(٢) إذا قال قامت الصلاة. (فى "محاضرات الراغب" ج ١ ص ١٢١)

(٣) قال أصحاب معاويةله: إنا ربّما جلسنا عندك فوق مقدار شهوتك، فنُريد أن تجعل لنا علامة نعرف بها ذلك. قال: علامة ذلك أن أقول "إذا شئتم!". وقيل ذلك ليزيد، فقال: إذا قلت "على بركة الله!" وقيل ذلك لعبد الملك بن مروان فقال: إذا وضعتُ الخيزرانة. ("العقد الفريد" ج ١ ص ١٦٦ و ٢٨٨)

(٤) قضيب كالسوط، وكل ما اختصر الإنسان بيده فأمسكه من عصا ونحوها. وذلك من شعار الملوك.

(٥) فى المسعودىّ (ج ٥ ص ٢٥٧) وفى الراغب فى الموضع السابق بياناه، أنه كان يقول: "إذا شئتم" وكان سادات العرب يقولون لجليسهم: "إذا شئت قم!" وهذه الجملة استعملها مصعب بن الزبير، كما فى الأغانى. (ج ٢ ص ١٣٨)

(٦) هذه العبارة المحصورة بين نجمتين منقولة عن صحـ.

(٧) سبحان الله (الراغب ج ١ ص ١٢١)

وكان المعتصم إذا نظر إلىٰ صاحب النعل، قام مَن حضره.

وكان الواثق إذا مسَّ عارضَيْه وتثاءب، قام سُمَّارُه.

وكان المأمون إذا ٱستلقىٰ علىٰ فراشه، قام مَن حضره.(١)

غير أن بعض مَن ذكرنا كان ربما قام بجنسٍ آخرَ من الإشارة والكلام، وإنما أضفنا إلىٰ كلِّ واحد منهم أغلبَ أفعاله كانت عليه.(٢)

٥

✦

عدم ذكر أحد بالعيب فى حضرة الملك

ومن حقِّ الملك أن لا يُعابَ عنده أحدٌ، صَغُرَ أو كَبُرَ.

تحريش الملك بين رجاله

غير أن من أخلاقها التحريشَ بين ٱثنين، والإغراءَ بينهما.

(١٠١) فمن الملوك مَن يُدبِّرُ فى هـذا تدبيراً يجب فى السياسة. وذاك أنه يقال: قلَّ ٱثنان ٱستويا فى منزلة عند الملك والجاه والتَّبَع والعزِّ والحُظْوَة عند السلطان فٱتفقا، إلَّا كان ذلك الٱتفاق وَهْناً علىٰ المملكة والمَلِك، وفساداً فى تدبيره. وذلك أنهما إذا ٱتفقا، وهما وزيرا الملك، كانا ـ متىٰ شاآ أن ينقضا ما أبرم الملك ويَحُلَّا ما عقد ويُوهِيَا ما أكَّد ـ قَدَرَا علىٰ ذلك للٱتفاق والمُجامعة. ومتىٰ ٱنفصلا حتّٰى يتبايَنا أو يتحارَبا كان تبايُنُهما

١٠

١٥

(١) هذه العبارة غير واردة فى ص. وإذا كانت صحيحة فمكانها بعد الكلام عن الرشيد، أى قبل هذا الموضع بسطرين.

(٢) فى "مطالع البدور فى منازل السرور" (ج ١ ص ١٨٤) أن أوّل من جعل لندمائه أمارة ينصرفون بها من مجلسه إذا أراد، كسرىٰ. وهو أن يمدّ رجله، فيعرفون أنه يريد قيامهم، فينصرفون. وتبعه الملوك. فكان فيروز الأصغر يدلك عينيه، وكان بهرام يرفع رأسه إلى السماء. وكان فى ملوك الإسلام معاوية يقول: العزة لله! ، وعبد الملك يلقى المروحة من يده. وحُدِّث بهذا الحديث عند بعض البخلاء، وسُئل ما أمارته، فقال: إذا قلت "ياغلام، هات الطعام!" وآنظر أيضا "محاضرات الراغب" (ج ١ ص ١٢١)

٢٠

أثبتَ فى نظام المُلك وأوكد فى عزّ المملكة. وكان متىٰ أراد هذا شيئا، أراد الآخَر خلافه. فإذا تباينا فى ذات أنفسهما، آجتمعا علىٰ نصيحة الملك، شاآ أم أبَيَا. وآثرها كلُّ واحد منهما علىٰ هوىٰ نفسه، وآنتظم للملك تدبيره وتمّ له أمرُه.(١)

ومن الملوك مَن لا يقصد إلىٰ هذا ولا يكون غرضه الإغراء بين وزرائه وبطانته لهذه العلّة، بل ليعرِف معايبَ كلِّ واحدٍ منهما. فإن معرفة ذلك تقطع الوزير عن الآنبساط فى حوائجه والتسحُّب علىٰ مَلكه.

✦✦✦

(١٠١) آداب السفير

ومن الحقّ علىٰ الملك أن يكون رسولُه صحيحَ الفِطرة والمِزاج، ذا بيانٍ وعِبارة، بصيرًا بمخارج الكلام وأجوبته، مؤدّيا لألفاظ الملك ومعانيها، صدوقَ اللهْجَة، لا يميل إلىٰ طمع ولا طَبَع(٢)، حافظًا لما حُمِّلَ.

وعلىٰ الملك أن يَمتحِن رسوله مِحْنَةً طويلةً، قبل أن يجعله رسولا.

---

(١) كان القضاء، إذا تعادى رجلان من أصحابه وبطانته، لم يسمع من أحدهما فى الآخر شيئا ولم يقبله، وإن كان القائل عنده عدلا فى شهادته. وإذا آصطلح الرجلان لم يقبل شهادة واحد منهما لصاحبه ولا عليه. ويقول إن الضغينة القديمة تولّد العداوة المحضة وتحمل على إظهار المسالة وتحتها الأضغىٰ التى إذا آسمكنتْ لم تُبْقِ. (شذرات الذهب ج ١ ص ٢١٦)

(٢) الطَّبَع: الشين والعيب. ومنه الحديث: "إستعينوا بالله من طَبَعٍ يَهْدِى إلى طمع." أخذه عُروة بن أُذينة شاعر قريش فقال:

لا خيرَ فى طَمَعٍ يَهْدِى إلىٰ طَبَعٍ * وعُفَّةٌ من قِوام العيش تكفينى.

(عن تاج العروس)

والعُفَّة البُلْغَة من العيش.

سنة ملوك العجم فى اختيار السفير

وكانت ملوك الأعاجم ـ إذا آثرت أن تختار من رعيتها مَن تجعله رسولا إلىٰ بعض ملوك الأمم ـ تمتحنه أوّلا، بأن توجّهه رسولا إلىٰ بعض خاصّة المَلك ومَن فى قرار داره فى رسائلها. ثم تقدّم عينًا عليه يحضر رسالته و يكتُبُ كلامه. فإذا رجع الرسول بالرسالة، جاء العين بما كتب من ألفاظه وأجوبته. فقابل بها الملكُ ألفاظَ الرسول. فإن اتفقت أو اتفقت معانيها، عرف الملك صحّة عقله وصدق لهجته. ثم جعله المَلك رسولا إلىٰ عدوّه، وجعل عليه عينا يحفظ ألفاظه و يكتبها، ثم يرفعها إلىٰ المَلك. فإن اتفق كلام الرسول وكلام عين المَلك وعلم أن رسوله قد صدقه عن عدوّه ولم يتزيَّد عليه للعداوة بينهما، جعله رسوله إلىٰ ملوك الأُمم، ووثق به. ثم كان بعد ذلك يقيم خَبَرَهُ مَقامَ الحُجَّة.

(١٠٢)

كلمة أردشير فى حق السفير

وكان أردشير بن بابك يقول: "كَمْ من دَمٍ قد سفَكَهُ الرسول بغير حِلِّه! وكم من جيوشٍ قد قُتِلَتْ وعساكِرَ قد هُزِمَتْ وحُرَمٍ قد انْتُهِكَتْ ومالٍ قد انْتُهِبَ وعهد قد نُقِضَ بخيانة الرسول وأكاذيبه!"

كلمة ثانية له

وكان يقول: علىٰ المَلك، إذا وجّه رسولا إلىٰ مَلك آخر، أن يردفه بآخر. وإن وجه رسولين، أتبعهما باثنين. وإن أمكنه أنْ لا يجمع بين رسولين فى طريق ولا ملاقاة ولا يتعارفان فيتواطآ، [فَعَلَ]. ثُمَّ عليه، إن أتاه رسوله بكتاب أو رسالة من ملك فى خير أو شرّ، أنْ لا يُحدِثَ فى ذلك خيرًا أو شرًّا، حتّى يكتُبَ إليه مع رسول آخر يحكي له ما فى كتابه الأوّل حرفًا حرفًا، ومعنًى معنًى. فإنّ الرسول ربما جُرِمَ بعضَ ما أُمِّلَ، فَافتعلَ الكتب وحرّض المُرْسِلَ علىٰ المُرْسَلِ إليه، فأغراه به وكَذَب عليه.(١)

(١) أورد القلقشندى هذه الجملة فى الجزء الأوّل (ص ٧٣) من "صبح الأعشىٰ" ببعض تصرف فى الألفاظ. وقد أورد هذه الحكاية صاحب "تنبيه الملوك" (ص ٨٩). وكذلك صاحب "المحاسن والمساوى" (ص ١٦٨ ـ ١٦٩).

ما فعله الإسكندر بسفير كذب عليه

ويقال إن الإسكندر وجّه رسولا إلىٰ بعض ملوك الشرق. فجاءه برسالة شكّ في حرف منها. فقال له الإسكندر: ويلك! إن الملوك لا تخلو من مقوّم ومسدّد، إذا مالت. وقد جئتني برسالة صحيحة الألفاظ بيّنة العبارة، غير أنّ فيها حرفًا ينقضها. أفعلىٰ يقين أنت من هذا الحرف أم شاكٌّ فيه؟ فقال الرسول: بل علىٰ يقين أنّه قاله. فأمر الإسكندر أن تُكتب ألفاظه حرفا حرفًا ويُعاد إلىٰ الملك مع رسول آخر، فيُقرأ عليه ويُترجَم له. فلما قُرِئَ الكتاب علىٰ الملك فتر بذلك الحرف، أنكره. فقال للمترجم: ضَعْ يَدِي علىٰ هذا الحرف. فوضعها. فأمر أن يُقطَع ذلك الحرف بسكّينة(١)، فقُطع من الكتاب. وكتب إلىٰ الإسكندر: إن رأس(٢) المملكة صحّةُ فطرةِ الملك، ورأس(٢) الملك صدقُ لهجةِ رسوله، إذ كان عن لسانه ينطقُ وإلىٰ أُذُنه يُؤدّى. وقد قطعتُ بسكّيتي ما لم يكن من كلامي، إذ لم أجدْ إلىٰ قطع لسان رسولك سبيلاً. فلما جاء الرسول بهذا إلىٰ الإسكندر، دعا الرسول الأوّل، فقال: ما حملك علىٰ كلمةٍ أردتَ بها فساد مُلْكين؟ فأقرّ الرسول أن ذلك كان لتقصير رآه من المُوجِّه إليه. فقال الإسكندر: فأراك لنفسك سعيتَ، لا لنا! فلمّا فاتك بعضُ ما أمّلتَ، جعلتَ ذلك ثأرًا في الأنفُس الخطيرة الرفيعة! فأمر بلسانه فنزع من قفاه(٣).

(١) المُدية يسمّيها العرب سكّينا وسكّيّة. والاسم الأوّل أشهر وأكثر شيوعا، والسكّين يذكّر ويؤنث؛ وقال بعضهم إن السكّيّة خطأ، وليس كذلك. فقد جاء في شرح الفصيح أنها لغة قوم من بني بيهة، وأوردها الفرّاء وابن سيده. قال الشاعر:

سِكّيّةٌ من طبع سيف عَمْرو ✻ نصابُها من قَرْنِ تَيْسٍ بَرِّي.

وفي الحديث: قال المَلَك لماشّق بطنه: ائتني بالسكّيّة (انظر "تاج العروس" في س ك ن، "وشفاء الغليل" صفحة ١٢٣). وقد استعمل الجاحظ كلا من اللفظين أحدهما هنا والثاني في صفحة ١٠٠ من هذا الكتاب.

(٢) سـ: أس.

(٣) انظر الحاشية ١ من الصفحة السابقة. وقد أورد هذه الحكاية صاحب "محاسن الملوك" (ص ٦١) واستعمل ألفاظ الجاحظ بنفسها.

✣

احتياط الملك فى منامه ومقيله

ومن أخلاق الملك أن لايكون لمنامه فى ليلٍ ولانهارٍ موضعٌ يُعرف به، ولاحاوٍ(١) يُقصَد إليه. إذ كانت أنفس الملوك هى المطلوب غِرَّتها(٢)، والموكَّل برعاية سِنَتِها(٣) وساعة غفلتها.

ويقال إن ملوك آل ساسان لم يُعرَف مَبِيت أحد منهم قطُّ ولا مَقِيلُه.

سنة ملوك الفرس فى النوم

فأما أردشير بن بابك وسابور وبَهرام ويزدجرد وكسرى أبرويز وكسرى أنوشروان، فكان يفرش للملك منهم أربعون فِرَاشا [فى أربعين موضعا](٤). ليس منها فِرَاش إلا ومَن رآه من بعيدٍ على الانفراد لايَشُكُّ(٥) أنه فِرَاش المَلِك خاصَّةً [وأنه نائم فيه](٤). ولعلّه أنْ لايكون على واحد منها. بل لعلَّه ينام على مجلس رقيق. وربما توسَّد ذِرَاعه، فنام.

السنّة النبوية فى النوم

ولو لم يجب على ملوكنا حفظُ منامهم وصيانتُه عن كل عينٍ تطرِفُ وأُذُن تسمَعُ إلاّ أن النبيَّ (صلى الله عليه وسلم) فعله ـ وهو من الله بمكانه المخصوص من كَلاءَتِه إيَّاه وحِرَاسَة الرُّوح الأمين له ـ لقد كان يحق عليهم أن يقتدوا به ويمتثلوا فعله. وقد كان المُشرِكون هَمُّوا بقتله، فأخبره جبريل (صلى الله عليهما) عن الله (جل ثناؤه) بذلك،

١٠٥ فدعا علىّ بن أبى طالب (عليه السلام) فأنامه على فِرَاشه، ونام هو (صلى الله عليه وسلم) بمكان آخَر. فلمّا جاء المشركون إلى فِرَاشه، فنهض منه علىّ، انصرفوا عنه.

---

(١) فى صـ، سـ: "حوى" [وآخرتُ الحاوىَ لأنه من اصطلاحات الفلسفة بمعنى الحيّز]

(٢) صـ: عزتها.

(٣) ضبطه فى سـ: "سُنَّتها" وهو سبق قلم.

(٤) الزيادة عن "محاسن الملوك".

(٥) سـ: إلا ومن ورائه من بعيد على الانفراد فراش لايشك الخ.

ففى هذا أكبر الأدلة وأوضح الحُجة على ماذكرنا. إذ كانت أنفُسُ الملوك هى الأنفس الخطيرة الرفيعة التى توزن بنفوس كلّ من أظلّت(١) الخضراء وأقلّت(٢) الغبراء.

إطلاع الوالدين فقط على منام الملك

وكانت الأعاجم تقول: لا ينبغى للملك أن يَطّلِعَ على موضع منامه إلّا الوالدان فقط(٣)، فأما مَن دُونهما، فالوحشةُ منه وتركُ الثقة به أبلغُ فى باب الحزم، وأوكد فى سياسة المَلِك، وأوجبُ فى الشريعة، وأوقع(٤) فى الهُوَيْنا(٥).

✣

معاملة الأبن للملك

ومن حق المَلك أن يُعامِلَه ابنُه كما يُعامِلُه عَبْدُه، وأنْ لا يَدخل مَداخِله إلّا عن إذْنه، وأنْ يكون الحجاب عليه أغلظَ منه على مَن هو دُونه من بِطانة الملك وخَدَمه، لئلّا تحمله الدالّة على غير ميزان(٦) الحقّ.

ماقعله يزدجرد مع ابنه بهرام

فإنه يُقال إنّ يَزْدَجِرْدَ رأى بَهْرامَ ابنَه بموضع لم يكن له، فقال: مَرَرْتَ بالحاجب؟ قال: نعم. قال: وعَلِمَ بدخولك؟ قال: نعم. قال: فأخْرُجْ إليه واضربْهُ ثلاثين سَوْطًا. ونَحِّه عن السِّتْر، ووَكِّلْ بالحجابة أرادمَرْدَ(٧). ففعل ذلك بَهرام وهو إذ ذاك ابنُ ثلاث عشرة. ولم يَعلمِ الحاجبُ فيمَ غضب الملك عليه. فلما جاء بَهْرام بعد ذلك ليدخل،

(١٠٦)

(١) السماء.

(٢) الأرض.

(٣) نقل هذه الأحكام صاحب "محاسن الملوك" باختصار مع استعمال ألفاظ الجاحظ (ص ٩٣)

(٤) ص: وأرفع.

(٥) التُّؤدة والرفق.

(٦) ص: مراد.

(٧) لم أعثر على شئ يتعلق بهذا الحاجب، ولم أجد هذه الحكاية فى غير الجاحظ. وفى "محاسن الملوك" سماه "فلانا".

دفع أَرَادَمَرْدُ فى صدره دَفعةً وَقَذَّه(١) منها، وقال: إنْ رأيتُك بهذا الموضع ثانيةً، ضربتُك ستين سوطا، ثلاثين منها لجنايتك علىٰ الحاجب بالأمس، وثلاثين لئلا تطمَع فى الجناية علىَّ(٢). فبلغ ذلك يَزْدَجِرْدَ، فدعا أَرَادَمَرْدَ، فخلع عليه وأحسن إليه(٣).

ما فعله معاوية مع ابنه يزيد

ويقال إن يزيد بن معاوية كان بينه وبين أبيه بابٌ. فكان إذا أراد الدخول عليه قال: ياجاريةُ! أنظرى هل تحرّك أمير المؤمنين؟ فجاءت الجارية [مرّة] حتّى فَتَحت الباب. فإذا معاوية قاعدٌ، وفى حجره مُصْحَفٌ، وبين يديه جارية تصفّحُ عليه. فأخبرت يزيدَ بذلك. فجاء يزيد فدخل علىٰ معاوية. فقال له: أى بُنَىَّ! إنى إنما جَعَلتُ بينى وبينك بابًا، كما بينى وبين العامّة. فهل ترىٰ أحدا يدخل من الباب إلّا بإذنٍ؟ قال: لا. قال: فكذلك فليكن بابك! فإذا قُرِعَ عليك فهو إذْنُك(٣).

ما فعله المهدى مع ابنه الهادى

وهكذا ذُكِرَ لنا أن موسىٰ الهادى دخل علىٰ أمير المؤمنين المهدىّ فَزَبَرَه(٤) وقال: إيّاك أن تعود إلىٰ مثلها إلا أن يُفتَح بابُك(٥)!

ما فعله الحاجب بولد المأمون (١٠٧)

وذُكِرَ لنا أن المأمون لما آستعَرَ(٦) به الوجع، سأل بعضُ بنيه الحاجبَ أن يُدْخِلَه عليه ليراه. فقال: لا والله! ما إلىٰ ذلك سبيل؛ ولكن إنْ شئتَ أن تراه من

(١) أى أوجعه وآلمه كثيرا. والوقذ شدّة الضرب. وفى "محاسن الملوك": فدقّه دفعةً أوقعه بها

(٢) فى "محاسن الملوك": وثلاثين على آستمرار جنايتك.

(٣) روى هذه الحكاية بتلخيص خفيف صاحب "محاسن الملوك" (ص ٨٦ – ٨٧)

(٤) إتبره.

(٥) نقلها فى "محاسن الملوك" (ص ٨٧).

(٦) أى آشتدّ عليه، تشبيها بآستعار النار. وفى صه: آستغرقه. [ولعل صواب الرواية: آستمرّ] وفى "المحاسن والمساوى": اشتد.

حيثُ لايراك، فاطَّلِعْ عليه من ثُقبٍ فى ذلك البـاب. فجاء حتّى اطَّلَعَ عليه وتأمَّلَهُ ثم انصرف.

ما فعله الحاجب بولد المعتصم

وذكر لنا أن إيتاخ(١) بَصُرَ بالواثق فى حياة المعتصم واقفًا فى موضعٍ لم يكن له أن يقف فيه، فزَبَره وقال: تَنَحَّ! فوالله لولا أنى لم أتقدَّم(٢) إليك فى ذلك، لضربتُك مائة(٣) عَصًا.

واجبات ابن الملك

وليس لابن المَلك من المَلك إلّا ما لعبده من الاستكانة والخضوع والخشوع، ولا له أن يُظهِر دالَّة(٤) البُنُوَّة وموضع الوراثة. فإن هذا إنما يجوز فى النَّمَط الأوسط من الناس ثم الذين يَلُونَهم. فأما الملوك فَتَرْقَى عن كلّ شئ يُمَتُّ(٥) به.

وليس لابن المَلك أن يسفِك دمًا، وإن أوجبت الشريعة سَفْكَه وجاءت المِلَّة

---

(١) قد يرد هذا الاسم بتقديم التاء على الياء (إياتخ) كما فى سـ وكما فى بعض نسخ "كتاب الفهرست". ولكن الصواب تقديم الياء التحتية. ومعناه فى اللغة الفارسية الغازى والفاضل، كما فى "برهان قاطع". كان أصل هذا الرجل طبّاخا ثم ترقّت به الأحوال إلى أن صار مقدّم الجيوش وكبير الدولة وصاحب مصر فى أيام المعتصم. ولذلك قال بابك إن المعتصم لم يبق لديه أحدا إلا وجّه به إليه، حتى طباخه. وبعث بذلك المعنى إلى ملك الروم، يُغريه بالخليفة حينما ضايقه وأخذ بخناقه، وكتب له: "فان أردتَ الخروج إليه، فليس فى وجهك أحد يمنعك". وقد تولّى إيتاخ أمر اليمن والكوفة والحجاز وتهامة ومكة والمدينة ودُعى له على المنابر. وانتهى أمره بأن خافه المتوكل وأعمل الحيلة فى القبض عليه وإماتته عطشا. وأخذ له من الذهب ألف ألف دينار. كانت وفاته سنة ٢٣٤. (أُنظر "النجوم الزاهرة" وابن الأثير فى فهارسهما، و "شذرات الذهب" ج ١ ص ٥٠٠)

(٢) سـ: أنى أتقدم.

(٣) الآداب والحكايات الواردة فى هذه الصفحة وفى التى قبلها منقولة بالحرف الواحد وبهذا الترتيب فى "المحاسن والمساوى" (ص ١٧٠ — ١٧٢).

(٤) صـ: الجنوح.

(٥) فى سـ: "تمت". والمَتّ هو التوسّل والتوصل بقرابة أو حُرمة أو دالّة أو نحو ذلك. وفى صـ: فترق عن كل شئ يمتّ إليه.

به ، إلّا عن إذن المَلك ورأيه . لأنه ـ متىٰ تفرّد بذلك ـ كان هو الحاكم دون المَلك . وفى هذا وَهْنٌ(١) علىٰ المَلك وضعف فى المملكة .

وكذلك أيضا ليس له أن يحكُمَ فى الحلال والحرام والفُرُوج والأحكام ، وإنْ كان ولىَّ عهدِ المَلك والمُقَلَّدَ إرْثَ أبيه والمحكومَ له بالطاعة ، إلا عن أمره ورأيه .

وليس له ـ إذا جمعته والمَلكَ(٢) دارٌ واحدةٌ ـ أنْ يأكلَ إلّا بأكل المَلك ولا [أن] يشرَبَ إلّا بُشربه ولا [أن] ينامَ إلّا بمنامه . ١٠٨

وكذا يجب عليه فى كلّ شئ من أُموره السارّة والضارّة أنْ يكون له تابعًا ولحركته تاليًا .

وليس هذا علىٰ [مَن] دون ابن المَلك من بطانته وسائر رعيته . لأن ابن الملك عُضوٌ من أعضائه وجزء من أجزائه ، والمَلك أصلٌ والابنُ فرعٌ ؛ والفرع تابعٌ للأصل ؛ والأصلُ مُستغْنٍ عن الفرع .

وليس لابن المَلك أن يرضىٰ عمن سخِط عليه الملك ، وإن كان المسخوطُ عليه لاذنبَ له عنده . لأنّ من العدل والحقّ عليه أنْ يوالِيَ مَن والىٰ المَلك ، ويعادِيَ مَن عاداه . ولا ينظرُ فى هذا إلىٰ حظِّ نفسه وإرادة طبعه ، حتّىٰ يبلغ من حقّ الملك ما إنْ وَجَدَ إلىٰ غِيلَتِه(٣) سبيلا أنْ يقتُلَه . وعلىٰ هذا ينبغى أن يكون نظام العامّة لمَلكها .

(١) صـ : وضعة .

(٢) الواو هنا واو المعية .

(٣) الضمير هنا يعود على المسخوط عليه . وفى صـ : حيله .

شهوة الاستبدال

وقد تحدثُ فى أخلاق المَلِك مَلَالَةٌ لشهوةِ الاستبدال[1] فقطْ. فليس لصاحبِ المَلِك، إذا أحدث الملكُ خُلُقًا، أنْ يعارضه بمثله، ولا إذا رأىٰ نَبْوَةً وازورارةً، أنْ يُحدِثَ مثله. فإنّه متىٰ فعل ذلك فَسَدتْ نيَّتُه. ومَن فسدت نيَّته، عادت طاعته معصيةً وولايتُهُ عداوةً. ومَن عادىٰ الملك، فنفسَه عادىٰ وإياها أهانَ.

(١٠٩)

الحيلة فى معالجتها

ولكن عليه، إذا أحْدَثَ المَلِك الخُلُقَ الذى عليه بِنْيَةُ أكثر الملوك، أن يحتالَ فى صرف قلبه إليه. والحِيلةُ فى ذلك يسيرةٌ: إنما هو أن يطلب خَلْوَتَه فيُلْهِيه بنادرةٍ مُضحِكة أو ضربِ مَثَلٍ نادرٍ أو خبرٍ كان عنه مُغَطًّى، فيكشفُهُ له.

ما صنعه مازيار المضحك مع أحد ملوك العجم

كما فعل بعض سُمَّار ملوك الأعاجم. أظهر الملك له جَفْوَةَ المَلَالَةِ فقط، فلما رأىٰ ذلك، تعلَّم نُبَاح الكلاب وعُوَاء الذئاب ونَهِيق الحمير وصِياح[2] الديوك وشَحِيجَ البغال وصَهِيل الخيل. ثم احتال حتّىٰ دخل موضعا يقرُبُ من مجلس المَلِك وفراشه يُخفى أمرَه[3]. فنبح نُباح الكلاب، فلم يشكَّ المَلِك أنه كلبٌ وابنُ كلب، فقال: انظروا ماهذا! فعوىٰ عُواء الذئاب، فنزل المَلِك عن سريره. فنهق نهيق الحمار، ومرَّ الملك هاربًا. وجاء غلمانه يَتْبَعُون الصوتَ. فكلما دَنَوْا منه، أحدثَ معنًى آخرَ، فاحجموا عنه. ثم اجتمعوا فاقتحموا عليه، فأخرجوه وهو عُرْيَانٌ مختبئٌ. فلمَّا نظروا إليه، قالوا للملك

(١) س: الاستبداد.

(٢) فى المسعودىّ طبع باريس: "رقاء"؛ وفى طبعة بولاق: "زقاء". وهذا هو الصواب، ومعناه صياح الديك. (انظر القاموس وشرحه)

(٣) فى المسعودىّ: "وأخفى أثره" ولعل الأقرب للصواب "وأخفى أمره". وفى ص: من مجلس الملك وموضع منامه.

هذا مازيار(١) الضحك! فضحك الملك حتّى تبسّط وقال: ويلك!(٢) ماحملك على هذا؟ قال: إن الله مسخني كلبا وذئبا وحمارا، لمّا غضب عليّ الملك. فأمر أن يُخلَع عليه ويُرَدّ إلى موضعه.(٣)

(١١٠)

وهذا لايفعله إلا أهلُ الطبقة السُّفلى. فأما الأشرافُ، فلهم حيل غير هذه، مما يُشْبِه أقدارَهم.

*كما فعل رَوْح بن زِنباع، وكان أحد دُهاة العرب. رأى من عبدالملك بن مروان نَبْوَة وإعراضًا. فقال للوليد: ألا ترى ما أنا فيه من إعراض أمير المؤمنين عني بوجهه، حتّى لقد فغرت السباع أفواهها نحوي، وأهوت بمخالبها إلى وجهي؟ فقال له الوليد: احْتَلْ في حديثٍ يُضحكه! فقال رَوْح: إذا اطمأنّ بنا المجلس، فسلْني عن عبد الله بن عمر، هل كان يمزح أو يسمع مِزاحًا؟ فقال الوليد: أفعلُ.

وتقدّم فسبقه بالدخول وتبعه رَوْحٌ. فلمّا اطمأنّ بهم المجلس، قال الوليد لرَوْح: هل كان ابن عمر(٤) يسمع المزاح؟ قال: حدثني ابن أبي عَتيق(٥) أن امرأته عاتكة بنت عبد الرحمن هجته، فقالت:

---

(١) سماه في المسعوديّ: "مرزبان" وكرره.

(٢) ص: ويحك.

(٣) نقل المسعوديّ هذه الحكاية. (مروج الذهب ج ٥ ص ٢٨٣)

(٤) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب. وورعه وتقواه أشهر من نار على عَلَم. (وترجمته في "الطبقات الكبرى" لابن سعد. وفي "أُسد الغابة" وغيرها من الكتب الكثيرة الخاصة بالصحابة)

(٥) هو عبدالله بن أبي عتيق بن عبدالرحمن بن أبي بكر الصِّدِّيق بن أبي قحافة. كان من نُسّاك قريش وظرفائهم بل قد بذَّهم ظرفا. وله أخبار كثيرة. في الخلاعة بغير رَفَث وفي المجون بغير فسوق. وقد غلبت عليه الدُّعابة وآشتهر بها. (أُنظر "العقد الفريد" ج ٣ ص ٢٣٨؛ وراجع "كامل" المبرد و"الأغاني" و"الكامل" لابن الأثير — بمقتضى فهارسها)

ذهب الإله بما تعيشُ به * وقمرتَ ليلَك أيَّما قَمْرِ.

أنفقتَ مالَكَ غير محتشِمٍ * فى كل زانيةٍ وفى الخمرِ.

قال: وكان آبن أبى عتيق صاحب غَزَل وفُكاهة، فأخذ هذين البيتين — وهما فى رقعة — فخرج بهما، فإذا هو بعبد الله بن عمر، فقال: يا أبا عبدالرحمن! أُنظر فى هذه الرقعة، وأَشِرْ علىَّ برأْيك فيها. فلمّا قرأها، آسترجع عبدُ الله. فقال: ماترىٰ فيمن هجانى بهذا؟ قال عبدالله: أرىٰ أنْ تَعْفُوَ وتصفَحَ! قال، والله يا أبا عبدالرحمن، لئن لقيتُ قائلها لأنيلنَّه نيلاً (١) جيّداً! فأخذ آبنَ عمر (٢) أفْكَلٌ، وآرْبَدَّ لونُه وقال: ويلك! أما تستحى أن تعصِىَ الله؟ قال: هو والله ما قلتُ لك.

وآفترقا. فلما كان بعد ذلك بأيام، لقيه. فأعرض آبن عمر بوجهه. فقال: بالقبرِ ومَن فيه، إلّا ما سمعتَ كلامى! فتحوّبَ (٣) عبد الله، فوقف وأعرض عنه بوجهه. فقال: علمتَ يا أبا عبدالرحمن أنى لقيتُ قائل ذلك الشعر فنلته؟ (١) فصَعِق آبن عمر ولُبِطَ به. فلما رأىٰ ماحلَّ به، دنا من أُذنه فقال: إنها آمرأتى! فقام آبن عمر فقبّل مابين عينيه.

فضحك عبدُ الملك حتّى خمص برجله وقال: قاتلك الله يارَوْحُ! ماأطيبَ حديثَك! ومدّ إليه يديه فقام رَوْحٌ فأكبَّ عليه وقبّل أطرافه وقال: ياأميرالمؤمنين، ألذَنبِ فأعتذرُ

---

(١) أُنظر الحاشية ٢ ص ٧٩ من هذا الكتاب.

(٢) الأفكل الرعدة. وفى المسعودىّ: "أفْكَلٌ ورعدة"، من باب عطف التفسير.

(٣) أقسم عليه بالروضة الشريفة وبالمدفونِ فيها وهو النبىّ صلى الله عليه وسلم. فتحوّب أى وجد فى عدم الوقوف إثما، فوقف ولكن معرضا عنه بوجهه.

أم لملالة فأرجو عاقبتها. قال: لا والله! ماذاك من شئ نكرهه. ثم عاد له أحسن حالا.[1]

ونحو هذا يُحكى عن جرير بن الخَطَفَى[2]، حين دخل على عبد الملك، وقد أوفده إليه الحجّاج بن يوسف. فدخل محمد بن الحجّاج وقال لجرير: كنْ فى آخر مَن يدخل. فلمّا دخل جرير، قال محمد: ياأمير المؤمنين هذا جريرُ بن الخطفى، مادحُك وشاعرُك! قال: بل مادحُ الحجّاج وشاعرُه. قال جرير: فقلتُ: إنْ رأى أميرُ المؤمنين أن يأذَنَ لى فى إنشاد مديحه؟ قال هاتِ بالمجاج! قال: فقلت: بل بك ياأمير المؤمنين! قال: هاتِ فى المجاج! فأنشدته قولى فى المجاج:

صَبَرْتَ النفسَ ياآبنَ أبى عُقَيْلٍ * مُحافَظَةً، فكيف ترى الثوابا؟
ولو لم تُرْضِ ربَّك، لم يُنَزِّلْ * مع النصرِ الملائكةَ الغِضابا.
إذا سَعَرَ الخليفةُ نارَ حَرْبٍ، * رأى المجّاجَ أثقبَها شِهابَا.

فقال: صدقتَ، هو كذلك! ثم قال للأخْطَل[3]، وهو خلفى وأنا لا أراه: قُمْ فهاتِ

(١) هذه الفقرات الخمس المحصورة بين نجمتين * * منقولة عن صبح. وقد نقل صاحب "محاسن الملوك" هذه الحكاية بالحرف الواحد تقريبا (ص ٧٦ — ٧٧). أما المسعودىّ فقد أوردها بألفاظ أخرى وزيادة ونقص فى المعنى (ج ٥ ص ٢٨٤ — ٢٨٦)، وكذلك النويرىّ فى "نهاية الأرب فى فنون الأدب" (فى الباب الثالث من القسم الثالث من الفنّ الثانى فى المجون والنوادر والفكاهات والمُلَح). ولكن عبارتهم كلهم فيها خالية من حسن الديباجة وجمال الترصيف الذى تراه فى عبارة الجاحظ.

(٢) سماه فى "الصحاح" الخَيْطَفَى. واللفظان معناهما واحد، وهو السريع. وهما مأخوذان من الخطف وهو الاستلاب. وهو لقب جدّه، لبيت قاله فى شعره. ولكن الاسم المخفف الذى استعمله الجاحظ هو الأكثر شيوعا، وقد ورد فى شعر الأخطل. (أنظر "تاج العروس"، "كتاب الاشتقاق" لابن دُرَيد (ص ١٤١)، "ديوان الأخطل" الذى نشره الأب الفاضل أنطون صالحانى (ص ٢٢٤)؛ وغيرها من دواوين الأدب)

(٣) سبب تسمية الأخطل أنّ اثنين تحاكما إليه فأقسم أنهما لئيمان، هما وأمهما وهو نفسه أيضا. فقيل له إن هذا لخَطَلٌ من قولك. فسُمّىَ الأخطل. (أمالى القالى ج ٢ ص ٢٣٤)

مديحَنا! فقام فأنشده فأجاد وأبلَغَ. فقال: أنْت شاعرُنا وأنتَ مادِحُنا. قُمْ فارْكَبْهُ! قال: (١١١)
فألقىٰ النصرانىُّ ثوْبَهُ، وقال: جَبِّ! (١) يا ابنَ المَرَاغَة. (٢) قال: وساء ذلك مَن حضَر من المُضَريّة، وقالوا: يا أمير المؤمنين، لا يُرْكَبُ الحَنِيفُ المُسْلِمُ، ولا يُظْهَرُ عليه. فاستحيا عبدُ الملك، وقال: دَعْهُ! قال: فانصرفتُ أخزىٰ خلق الله حالًا، لِمَا رأيتُ من إعراض أمير المؤمنين عنِّى، وإقباله علىٰ عَدُوِّى. حتّٰى إذا كان يومُ الرَّواح للوَداع، دخلتُ لأُوَدِّعَه، فكنتُ آخِرَ مَن دَخل عليه. فقال له مُحَمّد بن الحجّاج: يا أمير المؤمنين، هذا جريرٌ، وله مديحٌ فى أمير المؤمنين. فقال: لا، هذا شاعر الحجّاج! قلتُ: وشاعرُك يا أمير المؤمنين! قال: لا. فلما رأيتُ سوء رأْيه، أنشأتُ أقول:

أتصحُو أم فؤادُك غير صاحِ؟ ...

فقال: ذاك فؤادُك!

ثم أنشدتُه حتّٰى بلغتُ البيتَ الذى سرّه، وهو قولى:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَن رَكِبَ المطايا * وأَنْدىٰ العالَمِينَ بُطُونَ رَاحِ؟

فاستوىٰ جالسًا، وكان مُتَّكِئًا، فقال: بلىٰ نحن كذلك، أَعِدْ! فأعدتُ. فاسْتَغَرَ لونُه

---

(١) أمَرَهُ بوضع يديه علىٰ ركبتيْه أو علىٰ الأرض ليتمكَّنَ من ركوبه. و"جَبِّ" فعل أمر من التجبية بمعنىٰ الانحناء. قال فى "لسان العرب" فى مادة ج ب ى ما نصه: وجَبّى الرجُل وضع يديه علىٰ ركبتيه فى الصلاة أو على الارض. "وهو أيضا انكبابه على وجهه." والعامة فى مصر تقول الآن فى مثل هذا المقام: "طاطى البصلة" ويعنون بالبصلة الرأس. وذلك فى حال مايريد أحدهم ركوب الآخر.

(٢) هذا هو اسم أُمِّ جرير. وقيل إن الفرزدق والأخطل سمياها كذلك فى هجاء كل منهما له. وقيل إن ذلك تعيير له بنى كليب لأنهم أصحاب حمير. ووفود جرير على عبد الملك مذكور فى كثير من كتب الأدب مثل "الأغانى" و"العقد الفريد" (ج ١ ص ١٥١). ولكن رواية الجاحظ هى أوفىٰ وأحسن مارأيتُ.

(١١٢) وذهب ما كان فى قلبه، ثم التفتَ إلى محمد [بن الحجاج] فقال: تُرى أُمَّ حَزْرة(١) تُرويها مائةٌ من الإبِل؟ قلتُ: نعم يا أمير المؤمنين! إن كانت من فرائض كَلْبٍ(٢) فلم تُروِها، فلا أرواها(٣) الله! قال: فأمر لى بمائة فريضة. ومددتُ يدى - وبين يديه صِحَافٌ أربعٌ من فضة قد أُهْدِيَتْ اليه - فقلتُ: المِحْلَب، يا أمير المؤمنين! فأخذتُ منها واحدةً. فقال: خذها، لا بُورِك لك فيها! قلتُ: كلُّ ما أخذتُ من أمير المؤمنين مباركٌ لى فيه(٤).

* وهكذا فعل بالأمس عبد الملك بن مهلهل الهَمْدانى(٥)، وكان سليمان بن أبى جعفر(٦) قد جفاه. فأتاه يوما فى قائم الظهيرة، والهجيرةُ تَقِدُ(٧). فاستأذن، فقال له الحاجب: ليس هذا بوقت إذنٍ على الأمير. فقال له: أَعْلِمْهُ بمكانى(٨). فدخل عليه فأعلمه، فقال له: مُرْهُ يُسَلِّمْ قائمًا ويخفِّفْ! فخرج الحاجب فأذن له وأمره بالتخفيف. فدخل فسلَّم قائما ثم قال: أصلح الله الأمير! إنى انصرفتُ بالأمس نحو منزلى، و[قد]

(١) حزرة هى بنت جرير. وكان يُكْنَى بها. قال فى "تاج العروس" مانصُّه: "وأبو حزرة كنية سيدنا جرير رضى الله عنه". ولا أدرى لماذا لُقِّب بالسيادة ثم تَرضَّى عنه (؟!) ويظهر أنه فهم أنها كنية جرير بن عبد الله البجلى الصحابى، وليس كذلك.

(٢) صـ: كلاب.

(٣) صـ: رواها.

(٤) روى صاحب "الأغانى" هذه القصة باختلاف فيه زيادة ونقص (جزء ٧ ص ٦٦ و ٦٧). وانظر القصة بعينها مروية بتفاصيل وافية فى "ذيل أمالى القالى" (ص ٤٣ - ٤٦) ورواها باختصار ألفاظ الجاحظ فى "المحاسن والمساوى" (ص ٢٣٠ - ٢٣١).

(٥) صـ: عبد الملك بن هلال الحمانى. وقد صححتُ حسبما فى المسعودىّ طبع باريس وبولاق

(٦) هو سليمان بن أبى جعفر المنصور، وكان من قوّاد موسى الهادى. (مروج الذهب ج ٦ ص ٢٦٦)

(٧) أى كانت شدة الحَرِّ تتوقد. وفى مروج الذهب: واحتدام الهجير.

(٨) صـ: "أعلمه موضعى". وقد آخترتُ رواية المسعودىّ.

أمسيتُ. فبينا أنا فى الطريق، إذا بمؤذِّن (١) قد ثوّب (٢) بصلاة المغرب علىٰ مسجد معلَّق. فصعدتُ ثم صعدتُ ثم صعدتُ... قال سليمان: فبلغتَ السماءَ، فكان ماذا؟ قال: فتقدّم إنسانٌ، إما كُرَيْجيٌّ وإما سَنَيْدىٌّ وإما طُمطمانىٌّ (٣). فأمَّ القوم فقرأ بكلامٍ لم أفهمْهُ [ولغةٍ ماأعرفها]، فقال: "ويلٌ لكل هُمَزةٍ لُمَزةٍ ماز زَمَّاً مالا وعدّده" يريد "ويلٌ لكلِّ هُمَزةٍ لُمَزةٍ الذى جَمَعَ مالًا وعَدَّده". قال: وإذا خلفه رجُلٌ سكرانُ مايعقِلُ سُكْرًا. فلمّا سمع قراءته ضرب بيديْه ورِجليْه وجعل يقول "إيرعكى! إيرعكى دركلى! إيرعكى دركلى فى خِرِمِّ قاريك!" (٤) فضحك سليمان ثم تمرَّغ علىٰ فراشه، وقال: أُدنُ منى يا [أبا] محمد، فأنت أطيب أُمَّة محمد! ثم دعا له بخِلعة وقال: "الزَمِ البابَ وآغدُ فى كل يومٍ." وعاد إلىٰ أحسن حالاته عنده (٥) *

وهذه أخلاق الملوك لمن فهِمها (٦). وليس بعَجَب أن تتلوّن أخلاقُهم، إذ كنا نرىٰ أخلاق القَرِينِ المساوى والشريكِ والإلف تتلوّن ولا تَستَوِى، ولعلّه يجد عن إلفه

(١ ــ ٢) ثوّب: دعا إلى الصلاة. [وفى المسعودىّ طبع باريس وبولاق: "فدنوتُ ثم صعد إلى مسجد معلق". وظاهرٌ أن رواية صــ أوقعُ وأقعدُ وأتمُّ].

(٣) فى المسعودىّ طبع باريس "إما كردى وإما طمطانى" وفى طبع بولاق: "إما كردى أو طمطانى"

(٤) أُنظر الروايات الأخرى فى المسعودىّ طبع باريس وبولاق. وكلها محرّفة من النساخين كما هو ظاهر وقد نبه على ذلك مترجم المسعودىّ. [وانظر حاشية ٤ صفحة ٧٥ من هذا الكتاب]

(٥) هذه الفقرة المحصورة بين نجمتين * * منقولة عن صــ. والحكاية أوردها المسعودىّ بالحرف الواحد تقريبا عن الجاحظ دون أن يشير إليه (راجع "مروج الذهب" طبع باريس ج ٥ ص ٢٨٦ ــ ٢٨٨، وطبع بولاق ج ٢ ص ١٠٣)

(٦) صــ: إن فهمتها.

وقرينه وشكله مَنْدوحَةٌ . فكيف بِمَن مَلَكَ الشرق والغرب ، والأسود والأبيض[1] ، والحر والعبد ، والشريف والوضيع ، والعزيز والذليل ؟

ثمرات التأديب بالجفوة

وعلى أنه ربما كانت جَفْوَةُ المَلك أصلَحَ فى تأديب الصاحب من آتّصاله بالأنس ، وإن كان ذلك لايقع بموافقة المجفُوّ . لأن فيها فراغَ المجفُوّ لنفسه وتخلُّصه لأمره[2] ولِمَا كان لا يمكنه الفَراغ له من مُهِمّ أمره . وفيها أيضا أنه إن كان المجفُوُّ من أهل السَّمَر وأصحاب الفُكاهات ، فبالْحَرَى أن يستفيد بتلك الجفوة علما طريفا مُحْدَثاً له بالكتب ودراستها أو بالمشاهدة والملاقاة ، ورُبَّما كان لا يمكنه قبل ذلك ، وهو فى شغله . ومنها أن جفْوة المَلك ربما أدّبت الصاحب الأدبَ الكبيرَ . وذاك انه كلُّ مَن أَنِسَ[3] الملكُ مجلسَه وطال معه قعودُهُ وبه أُنسه ، تمنّى الفراغ وطلبت منه نفسُه التخلُّص والراحةَ والخلْوَةَ لإرادة نفسه . كما أنه مَن كَثُر فَراغُه وقلّ أُناسه ، جُفِيَ وآطُّرِحَ ، وطَلَبَ الشغلَ والأُنسَ وما أشبه ذلك .

فبهذه الأخلاق رُكِّبَتْ الفِطَرُ وجُبِلَتْ النفوس .

فإذا جاءه الفراغ الذى كان يطلبه ويتمناه من الجهة التى لم يقدِّرها ، طلبت نفسه الموضع الذى يملُّه والشُّغْل الذى كان يَهْرُبُ منه .

(١) سـ : الآحر .

(٢) سـ : وتخلص أمره عليه . صـ : وخاص أمرد عليه . وقد صححتُ بحسب السياق .

(٣) بمعنى أن الملك يجد مجلسه وجلوسه معه نفيسا . وفى سـ ، صـ : "نفس" . [ولا معنى لها . ولذلك صححتُ المتن بما وصل اليه آجتهادى .]

ومنها أنه كان فى عِزّ ومَنَعةٍ وأمرٍ ونهيٍ، وكان مرغوبا إليه مرهوبا منه، ثم[لما] حدثتْ جفوة الملك، أنكر ما كان يعرف، وعصاه مَن كان له مطيعا، وجفاه مَن كان به برًّا.

ومنها أن جفوة الملك تُحدِثُ رقة[1] على العامّة ورأفة بهم، وتُحدِثُ للمجفوّ (١١٤) حُسْنَ نيّةٍ.

ومنها أن الرضا، إذا كان يعقب الجفوة، وَجَبَ على المجفوّ شكر الله تعالى على ما ألْهَمَ الملك فيه فتصدّق وأعطى وصام وصلّى.

فكلُّ شئ من أمر الملك حَسَنٌ فى الرضا والسُّخط، والأخذ والمنع، والبذل والإعطاء، والسرّاء والضرّاء. غير أنه يجب على الحكيم المميِّز أن يجتهد بكلّ وُسع طاقته أن يكون من الملك بالمنزلة بين المنزلتين. فإنها أحرى المنازل بدوام النعمة، واستقامة الحال، وقلة التنافس ومصارعة[2] أهل الحسد والوُشاة.

\+ \+ \+

صفات المقربين

وليس من[3] أخلاق الملك أن يُدْنِيَ مَن عَظُم قدرُه واتّسع علمُه وطاب مُرَكَّبه، أو ظهرتْ أمانته أو كَمُلَتْ آدابه.

---

(١) أى رحمة.

(٢) فى سـ: "مسارعة". وفى صـ: "مشاغبة".

(٣) كذا فى سـ، صـ. نعم إن بقية الكلام ربما تنفى النفى، ولكن قوله بعد ذلك إن الملك يحتاج إلى هذه الطبقة ضرورةً يدلُّ على أن تقريبهم ليس من طباع الملوك ولكن من حاجتهم إليهم. ويؤكد ذلك ختام كلامه بأن التقريب للقرناء والمحدثين كائنا من كانوا ومن حيث كانوا.

وهذه الصفاتُ هى جنسٌ آخرُ يحتاج المَلِك إلى أصحابه ضَرورةً: لحاجتـه من القضاة إلى الفقه والأمانة، وحاجتِـه من الطبيب إلى الحِـذْق بالصناعة والرَّكانة(١)، وحاجته من الكاتب إلى تحبير الألفاظ ومعرفة مخارج الكلام والإيجاز فى الكتب، وما أشبه ذلك. فأما القُرَناء والمحدثون(٢) وأصحاب الملاهى ومَن أشبههم، فكلُّ مَن دنا منهم من المَلِك وعَلِقَ به: كائنًا مَن كان ومِن حيثُ كان. (١١٥)

وكذا وجدنا فى كُتب الأعاجم وملوكها.

كلمة أنوشروان، وأمثولة كليلة ودمنة

وفيما يُذكر عن أَنُوشِرْوان أنه قال: "صاحبك مَن علق بثوبك."

وكذا وجدنا فى أمثال "كَلِيلَةَ ودِمْنَةَ" أنّ الملك "مِثل الكَرْم الذى لا يتعلّق بأكرم الشجر، إنما يتعلق بما دنا منه"(٣). وقد نجد مِصداقَ ذلك عِيانا فى كلِّ دهرٍ وأخبارِ كلِّ زمانٍ.

(١) الركانة، على ما فى "تاج العروس" هى السكون إلى الشئ والاطمئنان به. وربما كان الأصوب "الزكانة" وهى الظنّ الذى يكون بمنزلة اليقين.

(٢) صـ: فأما الغرباء والمحدثون.

(٣) نقلتُ هذه العبارة عن أقدم نسخة معروفة الآن من كتاب "كليلة ودمنة" وهى التى طبعها الأب الفاضل لويس شيخو اليسوعى سنة ١٩٠٥ (صفحة ٥٧) وأصلحتُ لفظة "بمن" بلفظة "بما". وقد وردتْ هذه العبارة فى النسخة التى طبعها العلامة البارون دوساسى الفرنسىّ سنة ١٨١٦ هكذا: "مثل شجر الكرم الذى لا يعلق إلا بأكرم الشجر" (ص ٨٥). وهى كذلك فى النسخة المطبوعة فى بولاق عنها سنة ١٢٨٥ هـ. وهذه الرواية مبتورة ومحيفة جدا، ورواية النسخة القديمة متينة ومعقولة، تؤيدها رواية الجاحظ وإن كان الذى نسخها قد مسخها. فهى فى صـ: "كالشجرة ليس يتعلق بأكبر الأشجار، ولكن بالأقرب منها." وفى صـ: "كالشجرة ليس يتعلق بأكرم الأشجار، إنما يتعلق بما قرب منها"

سخاء الملك ورحمته

ومن أخلاق المَلك السخاءُ والحياءُ.(١)

فهما قرينا كلّ مَلك كان على وجه الأرض. ولو قال قائل إنهما رُكّبا فى الملوك كتركيب الأعضاء والجوارح، كان له أن يقولَ. إذ كنا لم نشاهد ولم يبلُغْنا عمن مضى من الملوك، ملوك العجم ومَن كان قبلهم. وملوك الطوائف وغيرهم، القِحَةُ والبُخْلُ.

فأما السخاء فلو لم يكن أحدَ طبائع الملوك، كان يجب أن يكون باكتساب، إن كان الملك من أهل التمييز. وذلك أنه يُفيد(٢) أكثر مما يُنفق. فإذا كانت هذه صفةَ كلّ مَلك، فما عليه من اتّخاذ الصنائع وعَمِّ(٣) المِنَنِ والإحسان إلى مَن نأى عنه أو دنا منه من أوليائه، والرحمةِ للفقير والمسكين، والعائدةِ على أهل الحاجة.

وأما الحياء فهو من أجناس الرحمة(٤).

(١١٦) وحقيق للملك (إذ كان الراعى) أنْ يرحَمَ رعيته، (وإذ كان الإمام) أنْ يرِقَّ على المُؤتَمِّ به، (وإذ كان المولى) أنْ يرحَمَ عبده.

فقد تخطِئُ العامّة وكثيرٌ من الخاصّة فى الملوك حتّى يُسَمُّونَهم بغير أسمائهم ويَصِفُونهم بغير صفاتهم ويَنحلونهم(٥) البخل والإمساك، إذا رأَوُا المَلك على سَنَنٍ من

(١) صـ: الملك الكرم والسخاء. ورواية سـ أصح. لأن الكلام التالى منقسم إلى موضوع السخاء وإلى موضوع الحياء. ولذلك اعتمدتُها فى المتن.

(٢) أفاده واستفاده وتفيَّده بمعنًى واحد. (عن القاموس)

(٣) صـ: وتعميم.

(٤) زاد فى سـ هنا: "للفقير والمسكين والعائدة على أهل الحاجة". وقد سبقت هذه الجملة فى الموضع المناسب لها فى السطر السابق، فلا حاجة لتكرارها.

(٥) صـ: الأبخال.

القصد وعدل من حدّ الإنفاق، ويغفلون عمّا أدّب الله تعالى به نبيه (صلى الله عليه وسلم) بقوله عزّ وجلّ: "وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ"، وبمدحه الصالحين من عباده بالقصد فى ذات أيديهم، بعلمهم أن أرضى الأحوال عنده مَادَخَل فى باب الاقتصاد، بقوله: "وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا."

الردّ على من وصف المنصور بالبخل

وقد ذكر بعضُ مَن لا يعلَم (فى كتاب ألّفه فى البخلاء من الملوك[1]) أن هشام بن عبد الملك بن مَرْوان ومَرْوان بن محمد وأبا جعفر المنصور[2] وغيرَه، منهم. ولولا أنا

(١) هو غير الكتاب الذى ألفه الجاحظ فى البخلاء عامّة، وقد طبعه فى ليدن سنة ١٩٠٠ المستشرق الهولندى فان ڤولتن Van Volten، ثم قلده المتهافتون على سرقة المطبوعات فى مصر. وقد روى الجاحظ فيه (ص ١٦٣) أن هشاما هذا "دخل حائطا [بستانا] له فيه فاكهة وأشجار وثمار ومعه أصحابه. فجعلوا يأكلون ويدعون بالبركة. فقال هشام: ياغلام! اقلع هذا، وآغرس مكانه الزيتون". فذلك يدلّ على أنه أراد تحقيق دعوة أصحابه، لأن الزيتون هو الشجرة المباركة. ويدلّ أيضا على بخله، حتى إذا جاء حائطه مرّة أخرى لم يجد أصحابه سبيلا إلى الإتيان على فاكهته وثمراته. وروى صاحب "شذرات الذهب" (ج ١ ص ١٨١) هذه الحكاية بما يدل على بخل هشام، وختمها بقول هشام لقيّم البستان: "اقلع شجره وآغرس فيه زيتونا حتى لا يأكل أحد منه شيأ". ولم يذكر الجاحظ شيئا من هذا القبيل عن المنصور فى كتابه فى البخلاء.

(٢) من الغريب أن صاحب "محاسن الملوك" نقل كثيرا عن الجاحظ بالحرف الواحد أو بالاختصار ولكنه لم يسمّه ولم يشر الى كتابه، فكان مثله كمثل المسعودىّ وغيره كثير من المؤرّخين والمؤدّبين. ولكنه حينما جاء إلى ذكر المنصور وتجهيله ذكر اسم الجاحظ، فقال فى صفحة ١٠٢ ماتصه: "قال الجاحظ: ربما وصف الأغبياء المنصور بالبخل، وليس الأمر كذلك. فإنه لم يسمع عن أحد من الخلفاء والملوك أنه وهب لرجل واحد ألف ألف غيره. وفرّق على أهل بيته فى ليلة واحدة ألف ألف." ثم روى القصة الآتية عن زيد مولى عيسى بن نهيك باختصار وختمها بهذه العبارة: "قال الجاحظ: فهل يجوز أن يُعدّ من فعل هذا الفعل بخيلا؟"

احتجنا[1] إلى الإخبار عن جهل هذا، لم يكن لذكره معنى ولا للتشاغل بالرد عليه. وكيف يكون المنصور ممن دخل فى جملة هذا القول، ولا يُعلم أن أحدا من خُلفاء الإسلام (١١٧)
ولا ملوك الأمم وصَلَ بألف ألف لرجلٍ واحدٍ[2] غيرُه! ولقد فرق على جماعةٍ من أهل بيته عشرة آلاف ألف درهم. ذكر ذلك الهَيثَمُ بن عَدِىٍّ والمدائنىُّ. وحدّثنى بعض أصحابنا عن أبيه عن زيد[3] مولى عيسى بن نَهيك[4] قال: دعانى المنصور بعد موت مولاى

(١) ص: ولو احتجنا.

(٢) المنصور هو أول خليفة أعطى ألف ألف لكل رجل من عمومته الأربعة (طبرى سلسلة ٣ ص ٤٢١) ومما يدخل فى مكارم المنصور أن الشعراء دخلوا عليه فأنشدوه من وراء حجاب، فاستحسن أقوال بعضهم، فأمر برفع الحجاب وظهرهم وأمر لأحدهم بعشرة آلاف دينار وأعطى الباقين ألفين ألفين (ذيل الأمالى للقالى ص ٤١).

ودخل عليه رجل من أهل الشام فأعجبه كلامه فقال: يا ربيع لا ينصرف من مقامه إلا بصلة ألف درهم، فخلست معه (ذيل الأمالى للقالى ص ٢٢٨).

ودخل عليه فتى من بنى حزم فذكر له ما فعله بنو أمية بقومه وأنشده شعرا للأحوص كان سببا فى حرمانهم من أموالهم منذ ستين سنة. فأمر له بعشرة آلاف درهم، ثم كتب إلى عماله برد ضياع آل حزم عليهم وإعطائهم غلاتها فى كل سنة من ضياع بنى أمية، وتقسيم أموالهم بينهم على كتاب الله على التناسخ، ومن مات منهم وفّر على ورثته. فانصرف الفتى بما لم ينصرف به أحد من الناس. (طبرى سلسلة ٣ ص ٤٢١)

(٣) سماه فى محاسن الملوك "يزيد".

(٤) كان الأمير عثمان بن نهيك على حرس المنصور. فلما مات سنة ١٤٠ فى فتنة الراوندية، استعمل الخليفة أخاه عيسى هذا على حرسه. وكان ذلك بالهاشمية. وهناك ابن نهيك آخر استعمله المهدى وأمره بضرب بشار بن برد حتى قتله. وأما إبراهيم بن عثمان بن نهيك فقد قتله الرشيد لأنه كان يبكى على قتل جعفر البرمكى =

فقال : يازيد ! قلتُ : لَبَّيْكَ ياأميرالمؤمنين ! قال : كم خلَّف أبو يزيدَ من المال؟ قلتُ : ألفَ دينار أو نحوَها . قال : فأين هى؟ قلتُ : أنفقتها الحُـرَّة(١) فى مأتمه . قال : فاستعظم ذلك ، وقال : أنفقتْ فى مأتمه ألف دينـار ! ماأعْجَبَ هذا ! ثم قال : كم خلَّف من البنات؟ قلتُ : ستًّا . فأطرق مَليًّا ثم رفع رأسه وقال : اُغْدُ إلىٰ باب المَهدىّ . فغدوتُ فقيل لى : معك بغال؟ فقلتُ : لم أُومَرْ بإحضار بغلٍ ولا غيرِه . ولا أدْرى لِمَ دُعِيتُ . قال : فأُعْطِيتُ ثمـانين ومائةَ ألفِ دينارٍ ، وأُمِرْتُ أن أدفع لكلِّ واحدةٍ من بناتِ عيسىٰ ثلاثين ألف دينار . ففعلتُ . ثم دعانى المنصور فقـال : قَبَضْتَ ما أمرنا به لبنات أبى يزيدَ؟ قلتُ : نعم ياأميرالمؤمنين ! قال : اُغْدُ علىّ بأكفانهنَّ حتى أُزوِّجَهن (١١٨)

= وعلى ماوقع للبرامكة . فكان إذا أخذمنه الشراب ، يقول لغلامه : هاتِ سيفى ! فيسلُّه و يصيح : واجعفراه ! ثم يقول : لآخُذَنَّ ثأرك ، ولأقتلَنَّ قاتلك ! فنمَّ عليه آبنه عثمان للفضل بن الربيع فأخبر الرشيد ، فكان ذلك سبب قتله . (ابن الأثير ج ٥ ص ٣٨٤ و"شذرات الذهب" ج ١ ص ٢٣٠ و"النجوم الزاهرة" ج ١ ص ٥٢٤) وروىٰ صاحب "المحاسن والمساوئ" رواية أخرى فى وشاية الولد بأبيه للرشيد (ص ٥٩٢) .

وأما لفظ "نبيك" فهو " مشتق من النهاكة وهى الجُرْأة والإقدام يقال : إنتَهَكَ فلان فلانا إذا نال من عِرضه وشتمه . ومنه : آنتهاك المحارم ، ونَهَكَتْهُ الحُمّى إذا أضَرَّتْ به ، وأنهكه عقوبةً إذا أوجعه ضربا . " (الآشتقاق لآبن دُرَيد ص ١٢٨)

(١) هذا اللقب كان يُعطىٰ عادة فى أيام الدولة الأموية والعباسية لنساء الأُمراء والأشراف والسادات والأكابر . فلما تغلبت الدولة التركية فى العراق ، وفى مصر خصوصا ، صار لقب نساء الملوك "خوندة" "خاتون ، " "آدر (جمع دار) " . وهذا اللقب الأخير كان خاصًّا بمصر فى زمان المماليك . وفى عصرنا هذا نقول : "حَرَم . " و"هانم" وهما لقبان يطلقان على نساء الأكابر . (أنظر ص ١٢١ من كتاب "زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك" المطبوع فى باريس)

منهم. قال: فغدوتُ عليه بثلاثة من وَلَد العَكِّيِّ(١) وثلاثة من آل نَهيك من بنى عمّهنّ. فزوّج كلَّ واحدة منهنّ على ثلاثين ألف درهم، وأمر أن يُجعل صداقُهنّ من ماله. وأمرنى أن أشترىَ بما أمر لهنّ ضياعًا يكون معاشهنّ منها(٢).

فهل سَمِع هذا الجاهلُ الخائنُ(٣) بمثل هذه المكارم لعربىّ أو عجمىّ؟ ولو أردنا أن(٤) نذكر محاسن المنصور على التفصيل والتقصّى لطال بها الكتابُ وكثُرَتْ فيه الأخبار.

وقلّما استعملتِ العامّةُ وكثيرٌ من الخاصّة التمييزَ، إيثارًا للتقليد. إذ كان أقلَّ فى الشُّغْل وأدلَّ على الجهل وأخفَّ فى المَؤُونة. وحسبُك من جهل العامّة أنها تُفضّل السمين على النحيف، وإن كان السمينُ مأفونًا(٥) والنحيفُ ذا فضائل؛ وتُفضّل الطويل على القصير، لا للطُّول ولكن لشئ آخَرَ لا ندرى ماهو. وتُفضّل راكبَ الدابّة على راكب البغل وراكبَ البَغْل على راكب الحمار، اقتصارًا على التقليد إذ كان أسهلَ فى المأتى وأهونَ فى الاختيار.

✣

(١١٩) الأدب فى اعتلال الملك ونظام التشريفات

ومن حقّ الملك — إذا اعتلّ — أن لا تَطلُبَ خاصّته الدخولَ عليه فى ليلٍ ولا نهارٍ، حتّى يكونَ هو الذى يأمر بالإذن لِمَن حَضَر؛ وأنْ لا يَرْفَعَ إليه الحاجبُ أسماءهم

(١) الظاهر أن العكّىّ المذكور هنا هو مقاتل بن حَكَم العكّىّ الذى استخلفه المنصور على حرّان، وقد حاصره بها عبدالله بن علىّ عم المنصور ثم قتله. فهو إذن من أولياء المنصور. (انظر الطبرىّ سلسلة ٣ ص ٩٣ و ٩٤)

(٢) روى الطبرىّ هذه الحكاية حرفا حرفا. (سلسلة ٣ ص ٤٢٠)

(٣) لعل الصواب: المائن، بمعنى الكاذب.

(٤) ص: آثرنا.

(٥) المأفون الضعيف الرأى والعقل. وفى ص: مؤوفا. [أى ذا آفة وعاهة].

مبتدئا حتّى يأْذَنَ له . فإذا أَذِنَ له بالدخول، فمن حقّه أنْ لاتدخُلَ عليه الطبقةُ العاليةُ مع التى دونها، ولا يدخُلُ عليه من هذه الطبقة جماعةٌ، ومن غيرها جماعةٌ. ولكنْ على الحاجب أن يُحضِرَ الطبقاتِ الثلاثَ كلَّها أو مَن حضر منها، ثم يأْذَنُ للعُلْيا جُمْلةً. فإذا دخلتْ، قامت بحيثُ[1] مراتبُها، فلم تسلِّمْ عليه فتُحْوِجَهُ إلى ردّ السلام؛ فإذا عَلِمتْ أنه قد لاحظها، دعتْ له دُعاءً يسيرًا مُوجَزًا، ثم خرجتْ. ودخلتْ التى تليها، فقامت على مراتبها أقلَّ من قيام الأُولى، ودعت دعاءً أقلَّ من دعاء الأُولى. ثم دخلتْ بعدهما الثالثة، فكان حظُّها أن يراها فقط. وليس من عادة الملوك وُقُوفُ هذه الطبقة الثالثة تتأمَّلُ الملك وتدعو له وتنظر إليه. وإنّما مراتبها أنْ يراها فقط.

ومن حقّ المَلك أنْ لا ينصرف أحدٌ من هذه الطبقات إلى رَحْلِهِ إلّا فى اليوم الذى كان فيه ينصرف فى صحة المَلك. وبالْحَرِىّ ينبغى أنْ لايبرح[2] فِناء سيِّده ومالكه، انتظارًا لإفاقته من عِلَّته وفَحْصًا[3] عن ساعات مرضه.

(١٢٠)

✣

جوائز البطانة وصلاتهم

ومن الحقّ على المَلك تعهُّدُ بِطَانته وخاصَّته بجوائزهم وصِلاتهم، إن كان ذلك يكون مُشاهرةً أو مُساناةً.

ومن أخلاق المَلك أن يُوكِّلَ بأَذكاره صِلاتِهم، ولايُحْوِجَ أحدًا منهم إلى رفع رُقعةٍ أو إذْكار أو تعريض. فإن هذا ليس من أخلاق المتيقِّظ من الملوك.

---

(١) صـ : يجنب.

(٢) راجع الحاشية ١ صفحة ٢٢ من هذا الكتاب عن لفظ "برح".

(٣) صـ : ومحصى.

سنة ملوك ساسان فى الجوائز

وكانت ملوك آل ساسان يفعلون فى هذا فعلا بَقِيَ لهم ذكرُهُ إلىٰ هذه الغاية وإلىٰ انقضاء مدّة العالَم.

فكان الملك منهم يُقدّر للرجُل من خاصّته وبِطانته تقديراً وَسَطًا بين الإسراف والاقتصاد فى مُؤَنِه كُلِّها. وحوائجه خاصّها وعامّها. فإذا كان التقدير — علىٰ الجهة التى وصفنا — عشرةَ آلاف درهم فى الشهر، وكانت للرجُل ضيعةٌ، أمر أن يُدفَعَ إليه فى كل ثلاثين ليلة عشرةُ آلاف درهم، لأنزاله[1] ونفقاته وحوائجه. ويقول له المَلِكُ: "قد عَلِمنا أنّ الضيعة التى أفدتَها[2] هى مما تقدّم من صِلاتنا لك وقد تسلّفنا شكرَ تلك النعمة منك؛ وليس من العدل أن تكونَ فى خدمتنا، وتكونُ نفقتك من شئ أَفَدْتَهُ[3] بشكرٍ قد تقدّم وحُرْمة قد تأكّدتْ. فليكن ما أثمرتْ لك ضيعتُك ظَهْرِيًّا لنوائب الزمان وتخرُّم الأيّام وانقلاب الدُّوَل وحوادث الموت[4]. ولتكن مُؤَنُك وكُلَفُك[5] على خاصّ اموالنا."

وكذلك الطبقات على هذا النظام والإحكام. فيمضى علىٰ أحدهم عشرون سنة لايفتح فاه بطلب درهم ولا غيره، منبسطا[6] لزمانه مبتهجا بِنِعَم مَلِكه مسرورا بما يكفى عن التّذكار وشكوىٰ الحال[7].

(١) الأنزال (جمع نُزُل): القوم النازلون على الإنسان، أو ما هُيِّئَ للضيف أن ينزل عليه، كما فى تاج العروس.

(٢) صـ: أخذتها.

(٣) صـ: أخذته.

(٤) سـ: وحوادث الأيام والموت. صـ: وحوادث المؤن.

(٥) صـ: وكُلُكَ.

(٦) فى صـ: "مستنشطا". وليس لها معنى فى اللغة يوافق هذا المقام، فلذلك أصلحناها بما اقتضاه الحال. وهى من الكلمات التى تفرّد بها صـ.

(٧) صـ: بما كفى من التذكار وشكر الحال.

✦
✦ ✦

هدايا المهرجان والنيروز من الملك وله

ومن حقّ الملك هدايا المَهْرَجان[١] والنَّيْرُوز[٢].

والعلّة فى ذلك أنّهما فَصْلَا السنَة.

فالمهرجان دخولُ الشتاء وفصلِ البَرْد؛ والنيروز إذْنٌ بدخول فصل الحرّ. إلا أن فى النيروز أحوالًا ليستْ فى المهرجان. فمنها آستقبال السنة وآفتتاح الخراج وتولِيَةُ العمّال والآستبدال وضرب الدراهم والدنانير وتذكية بيوت النيران وصبّ الماء وتقريب القربان[٣] وإشادة البنيان[٤] وما أشبه ذلك.

فهذه فضيلة النيروز على المهرجان.

(١٢٢) ومن حقّ الملك أن يُهدَى إليه الخاصّةُ والعامّةُ.

والسُّنَّةُ فى ذلك عندهم[٥] أن يُهدى الرجُل ما يُحِبُّ من ملكه، إذا كان فى الطبقة العالية. فإن كان يُحِبُّ المسك، أهدىٰ مسكًا لا غيرَه؛ وإن كان يحب العنبر،

(١) كلمتان فارسيتان معناهما محبة الروح.

(٢) كلمتان فارسيتان معناهما اليوم الجديد أى رأس السنة.

(٣) صح: والأخذ بالاسفند. [والذى فى المعجم الفارسى العربى الإنكليزى لرتشاردصُن أن الإسْفَنْد هو اسم اليوم الثالث من الخمسة الأيام التى يضيفها الفرس لآخر الشهر الثانى عشر من السنة. ولما كان الشهر عندهم ثلاثين يوما فهم يضمُّون خمسة أيام على آخر الشهر من السنة ليجعلوها معادلة للسنة الشمسية. وربما كان الجاحظ يشير إلى حفلة خاصة بالفُرس فى ذلك اليوم بتقريب القربان].

(٤) كل هذه رسوم فارسية نقلها الجاحظ عن آبائهم، بغير ملاحظة لما أخذ المسلمون أو تركوا منها.

(٥) هذا وما يليه يؤيد ما أشرنا إليه فى الحاشية السابقة

أهدىٰ عنبرا ؛ وإن كان صاحب بِزَّةٍ ولِبْسَةٍ[1]، أهدىٰ كُسْوَةً وثيابا ؛ وإن كان الرجُل من الشُّجعَاء والفُرسان ، فالسُّنَّةُ أنْ يُهدِيَ فَرَسا أو رمحا أو سيفا ؛ وإن كان راميا ، فالسُّنَّة أن يُهدِيَ نُشَّابا ؛ وإن كان من أصحاب الأموال[2]، فالسُّنَّةُ أن يُهدِيَ ذهبًا أو فضة ؛ وإن كان من عُمَّال المَلك ، وكانت عليه مواني[3] للسنة الماضية ، جمعها وجعلها في بَدَرِ[4] حريرٍ صينيٍّ وشريحات فضة وخيوط إبْريسَم وخواتيم عنبر ثم وجَّهها .

(١) صـ : صاحب كسوة وثياب .

(٢) صـ : "أصحاب العمال" . [ولعلها أصحاب الأعمال] .

(٣) وردت هذه الكلمة مهملة في سـ ، صـ هكذا (مواسذ) ، فوجدناها في شفاء الغليل (بعد مراجعة غيره من كتب اللغة) هكذا : "مواتيد" وفسرها بقوله "بقايا في شعر الفرزدق . مُعَرَّب ." (ص ٢٠٨) ولكن الناسخ أو الطابع جعلها بالتاء المثناة الفوقيه بدلا من النون . وهي واردة على صحتها في كتاب "المُعرَّب من الكلام الأعجمي" للإمام الجواليقي (طبع العلامة الألماني سخاو بمدينة ليبسك سنة ١٨٦٧ في صفحة ١٤٣) وقد استشهد عليها ، بقول الفرزدق .

"خَرَاجُ مَوانِيذَ عَلَيْهِم كثيرةٍ * تُشَدُّلَهَا أيْدِيهِمُ بالعواتِقِ" .

وقد رأيتُ هذا البيت في قصيدة طويلة في مدح عمر بن هُبَيرَةَ الفزاري ، ضمن ديوان الفرزدق الذي طبعه باللغة العربية وترجمه إلى الفرنسيّة العلامة المستشرق المسيو بوشيه (R. Boucher) في باريس سنة ١٨٧٠ . (أُنظر صفحة ٢٣٨ من القسم العربي و ٧١٧ من القسم الفرنسي) . وقد ظنّ هذا العالم أن الكلمة ربما كان الأصحّ في كتابتها الدال المهملة بدلا من المعجمة ، وظنّ أنها تعريب كلمة "مانده" الفارسيّة . وأقول إن العرب يجعلون الدال ذالا عند التعريب (مثل أُستاذ ، تلميذ ، فالوذج ، فولاذ ، بغداذ ، كلواذ ، مروالروذ الخ) . وأما الاصل الفارسي فهو "مانده" من مصدر "ماندن" بمعنى البقاء . وجمعوا الكلمة بعد تعريبها على "مواني" بجعل الدال ذالا جريًا على عادتهم في التعريب .

(٤) صـ : بيت .

وكذلك، إنما كان يفعل من العمّال مَن أراد أن يتزيَّن بفضل نفقاته أو بفضل عُمالته أو أداء أمانتـه.

وكان يُهدى الشاعرُ الشعرَ، والخطيبُ الخُطْبَةَ، والنديم التُّحفة والطُّرفة والباكورةَ من الخَضَراوات.

(١٢٣) وعلىٰ خاصَّة نساء المَلك وجواريه أن يهدين إلىٰ الملك ما يُؤْثِرْنَهُ ويُفَضِّلْنَهُ(١) كما قدّمنا في الرجال. غير أنه يجب علىٰ المرأة من نساء الملك ـ إن كانت عنـدها جارية تَعْـلَمُ أن الملك يَهواها ويُسَرُّ بها ـ أن تُهديَها إليه بأكمل حالاتها وأفضل زِينتها وأحسن هيآتها. فإذا فعلتْ ذلك، فمن حقِّها علىٰ المَلك أن يُقَدِّمَها علىٰ نسائه ويَخُصَّها بالمنزلة ويَزيدَها في الكرامة، ويَعْلَمَ أنها قد آثرته علىٰ نفسها وبذلتْ له ما لا تجود النفس به وخصَّته بما ليس في وُسع النساء ـ إلّا القليل منهنّ ـ الجودُ به.

ومن حق البِطَانة والخاصَّـة علىٰ المَلك في هذه الهدايا أن تُعْرَض عليه وتقوّم قيمةَ عَدْلٍ.

فإذا كانت قيمة الهدية عشرةَ آلافٍ، أُثْبِتَتْ في ديوان الخاصَّة. فإن كان صاحبها ممن يرغبُ في الفضل ويذهب إلى الربح ثم نابته نائبة من مُصيبة يُصاب بها أو بناء يتخذه(٢) أو مأدُبَةٍ يأدِبها(٣) أو عُرس يكون من تزويج ابنٍ أو إهداءِ ابنةٍ إلىٰ بَعْلها، نُظِرَ إلىٰ ما له في الديوان (وقـد وُكِّلَ بذلك رجُلٌ يرعىٰ هذا وما أشْبَهَهُ ويتعهَّدُه)، فإذا كانت قيمة الهديّة عشرةَ آلافٍ، أُضْعِفَتْ له ليستعينَ بها علىٰ نائبته.

(١) صـ: يؤثرنه ويفضلنه.

(٢) سـ: يجدده.

(٣) في سـ: يجددها. وليست في صـ.

(١٢٤) وإن كان الرجُلُ ممن أهدىٰ نُشَّابة أو درهما أو تُفَّاحة أو أُتْرُجَّة، فإن تلك الهدية إنما قدمها لتُثْبَتَ له فى الديوان، ويُخْبَر الملكُ إنْ نابتْه نائبةٌ. فعلىٰ الملك إعانته عليها، إذا كان من أساورته وبِطانته أو محدِّثيه. فإذا رُفع للملك أن له فى الديوان نُشَّابةً أو درهمًا أو أُتْرُجَّةً أو تُفَّاحةً، أَمَرَ المَلك أن تؤخذ أُتْرُجَّةٌ فتُمْلَأ دنانيرَ منظومةً ويوجَّهَ بها إليه. وكان لا يُعْطى صاحبَ التُّفَّاحة إلا كما يُعطى صاحبَ الأُتْرُجَّة. وأما صاحب النُّشَّابة فكانت تخرج نُشَّابتُه من الخِزانة وعليها آسمه، فتُنْصَبُ ويوضعُ بإزائها من كِسوَة المَلك ومن سائر الكِسَاء. فإذا آرتفعتْ حتىٰ تُوازِىَ نَصْلَ النُّشَّابة، دُعِىَ صاحِبُها فدُفِعَتْ إليه تلك الكِسوة.

وكان من تقدّمتْ له هديَّةٌ فى النيروز والمهرجان (صَغُرَتْ أم كَبُرَتْ، كَثُرَتْ أم قَلَّتْ)، ثم لم يَخْرُجْ له من الملك صِلةٌ عند نائبةٍ تنوبه أو حقٍّ يلزمه، فعليه أن يأتىَ ديوان الملك ويُذَكِّر بنفسه، وأنْ لا يغفلَ عن إحياء السُّنَّة ولزوم الشريعة. وإن غَفَلَ عن أمره بعارضٍ يحدُثُ، فإن تَرَكَ ذلك علىٰ عَمْدٍ، فمن سُنَّةِ الملك أن يَحرِمَه أرزاقه لستَّةِ أشهرٍ، وأن يدفعها إلىٰ عَدُوٍّ، إن كان له. إذ أتىٰ شيأ فيه شَيْنٌ علىٰ المَلك وضَعَةٌ فى المملكة.

(١٢٥) وكان أردشير بن بابك وبَهْرام جور وأنوشروان يأمرون بإخراج ما فى خزائنهم فى المهرجان والنيروز من الكُسَى فُتفرَّقُ كلُّها علىٰ بِطَانة الملك وخاصَّته، ثم علىٰ بِطَانة البِطَانة، ثم علىٰ سائر الناس، علىٰ مراتبهم.

وكانوا يقولون: إن المَلك يَستغنى عن كِسوة الصيف فى الشتاء، وعن كِسوة الشتاء فى الصيف، وليس من أخلاق الملوك أن تُخبَّأ كِسوتُها فى خَزَائنها، فتُساوى العامّة فى فعلها.

فكان يلبس فى يوم المهرجان الجديد من الخزِّ والوشْيِ والمُلْحَم. ثم تنزق كسوة الصيف على ماذكرنا.

فإذا كان يوم النيروز، لبس خفيف الثياب(١) ورقيقها، وأمر بكسوة الشتاء كلها ففُرِّقتْ.

أمير مسلم اقتدى بالفرس فى تفريق كسوته

ولا نعلم أنّ أحدًا بعدَهم آقتفى آثارهم، إلّا عبدَ الله بن طاهرٍ، فإنى سمعت من محمد آبن الحسن بن مُصْعَبٍ(٢) يذكر أنه كان يفعل ذلك فى النيروز والمهرجان، حتّى لا يترك فى خزائنه ثوبًا واحدًا إلّا كساه. وهذا من أحسن ماحُكِيَ لنا من فضائله.

ومن أخلاق الملوك اللَّهْوُ.

هو الملوك

غير أن أسعدهم مَن جعل للهوه وقتًا واحدًا، وأخذ نفسه بذلك. فإنه إذا فعل ذلك، (١٢٦) آستطاب اللهوَ والهزلَ والمفاكهةَ. وإذا أدْمَنَ ذلك، خرج به اللهوُ من بابه حتّى يجعله جِدًّا لا هَزْلَ فيه، وحقًّا لا باطلَ معه، وخُلُقًا لا يمكنه الآنصرافُ عنه.

وليس هذا صفة الملك السعيد.

ترك الإدمان فى الملاذّ

ومَن أدمَنَ شيأً من ملاذِّ الدنيا، لم يَجِدْ(٣) له من اللذة وُجودَ القَرِم النَّهِم المُشتاق.

وهذا قد نراه عِيانًا. وذلك أن ألذّ الطعام وأطْيَبَهُ ما كان على جوعٍ شديدٍ؛ وألذّ الجماع وأطيبه، إذا آشتدّ الشَّبَقُ وطالت العُزْبة(٤)؛ وألذّ النوم وأهنأه ما كان بعقب التعَب والسهَر.

(١) صـ: ثياب سابور.

(٢) راجع حاشية ٢ من ص ٧٤ من هذا الكتاب وقد أورد آسم الأب هنا بلفظ "الحسن" على صحته.

(٣) صـ: اللذة وجودة الطعم وجودة النوم.

(٤) صـ: الغربة.

وعلىٰ هذا جميعُ ملاذِّ الدنيا.

فالملوك الماضية إنما جعلتْ للملاذِّ وقتًا واحدًا من اليوم والليلة، لهذه الفضيلة التى فيها.

فعلىٰ الملك السعيد أن يقسم يومه أقساما. فأوّلُه لذكر الله تعالىٰ وتعظيمه وتهليله، وصدرُه لرعاياه وإصلاح أمرها، ووَسَطُه لأكله ومنامه. وطَرَفُهُ للهَوِه وشغله. وأنْ لا يُثابر علىٰ إدمان الشغل فى كلِّ يوم. وإن طالت هذه الأقسام بمواضعها. فلا يجد للهو لذته، ولا للنعيم موضعه الذى هو به.

***

(١٢٧) سيرة الملوك واتخلفاء فى الشرب

وكانت الملوك الماضية من الأكاسرة تشرب فى كلِّ ثلاثة أيام يومًا. إلّا بَهْرام جور والأَرْدَوان الأحمر[1] وسابور. فانهم كانوا يُدْمنون الشُّرْب فى كلِّ يوم.

وكان ملوك العرب (كالنُّعمان) وملوك الحِيرة وملوك الطوائف. أكثرُها يشْرَبُ فى كل يومٍ وليلةٍ مرّةً[2].

وكان من ملوك الإسلام، مَن يُدْمِنُ علىٰ شُربه، يزيد بن معاوية. وكان لا يُمْسى إلّا سكرانَ، ولا يُصبح إلّا مخمورًا.

وكان عبد الملك بن مَرْوان[3] يسكَر فى كلِّ شهر مرّةً حتّىٰ لا يَعْقِل فى السماء هو

(١) لعلّ الصواب: الاصغر. (أُنظر حاشية ٦ صفحة ٢٩، وصفحة ١١٨ من هذا الكتاب).

(٢) صـ: فى كل جمعة يوما وليلة

(٣) صـ: عبد الله.

أو فى الماء[(١)]، ويقول: "إنما أقصد فى هذا إلى إشراق العقل، وتقوية مُنَّة الحفظ، وتصفية[(٢)] موضع الفكر." غير أنه كان إذا بلغ آخر هذا السُّكْر[(٣)] أفرغ ما كان فى بدنه حتى لا يبقى فى أعضائه منه شئ. فيُصْبِحُ خفيفَ البَدَن، ذَكِيَّ العقل والذهن، نشيطَ النفس، قوىَّ المُنَّة.

وكان الوليد بن عبد الملك يشرَبُ يومًا ويدَعُ يومًا

وكان سليمان [بن عبد الملك] يشرب فى كلّ ثلاثِ ليالٍ ليلةً.

ولم يشرَبْ عمر بن عبد العزيز منذُ أفضتْ إليه الخلافةُ إلى أن فارق الدنيا، ولا سَمِع غِناءً.

*[(٤)]وكان هشام يسكر فى كلّ جمعة.

(١٢٨) وكان يزيد بن الوليد والوليد بن يزيد يُدمنان اللهو والشرب.* [(٤)]فأما يزيد بن الوليد، فكان دهرَه بين حالَيْن، بين سُكْرٍ وخُمارٍ، ولا يُوجَد أبدًا إلّا ومعه إحدىٰ هاتَيْنِ.

وكان مَرْوان بن محمد يشرَب ليلةَ الثلاثاء وليلة السبت.

وكان أبو العباس [السفّاح] يشرَب عَشِيَّةَ الثلاثاء وحدَها، دون السبت[(٥)].

---

(١) صـ: الأرض.

(٢) صـ: وتقوية وتصفية.

(٣) صـ: آخر حدّ السكر.

(٤) هاتان الجملتان المحصورتان بين نجمتين * * منقولتان عن صـ.

(٥) صـ: وحدها فى كل جمعة.

*[(١)] وكان المهدىّ والهادى يشربان يومًا، ويدَعَان يومًا.

وكان الرشيد يشرب فى كل جمعة مرتين. وربما قدَّم أيامه وأخّرها. على أنه لم يَرَهُ أحدٌ قطُّ يشرب ظاهرًا. إلّا أنه كان يقعد هذين اليومين لندمائه.[(٢)]

وكان المأمون فى أوّل أيامه يشرب الثلاثاء والجمعة. ثم أدمن الشرب عند خروجه إلى الشام فى سنة خمس عشرة [ومائتين] إلى أن تُوُفِّىَ.

وكان المعتصم لايشرب يوم الخميس ولا يوم الجمعة.

وكان الواثق ربما أدمن الشرب وتابَعَهُ. غير أنه لم يكن يشرب فى ليلة الجمعة ولا يومها.*

+ + +

لبس الملوك

وأخلاق الملوك تختلف فى اللِّبْسة والطِّيب.

فمن الملوك مَن كان لا يَلْبَسُ القميص إلّا يومًا واحدًا أو ساعةً واحدةً. فإذا نزعه لم يَعُدْ إلى لُبْسِه.

ومنهم مَن كان يَلْبَسُ القميص والجُبَّة أيامًا، فإذا ذهب رَوْنَقه رمى[(٣)] به فلم يلبَسْه بعدُ.

فأما أردشير بن بابك ويَزدِجِرْد وبَهْرام وكسرى أبَرْوِيز وكسرى أنُوشِروان

(١) هذه الفقرات الخمس المحصورة بين نجمتين * * مقولة عن صـ .

(٢) وانظر حاشية ٥ ص ٣٧ من هذا الكتاب.

(٣) صـ : رونقه وبعض مائه رمى. [ولعله : وبعض بهائه رمى]

وقُبَاذ، فإنهم كانوا يَلْبَسُون القميص ويُغسَل لهم ثم يَلْبَسونه ويُغسَل لهم . فإذا غُسِل ثلاث عَرَكاتٍ[1] لم يُغسَلْ بعدَها، وجُعِل فى الخِلَع التى تُخْلَعُ على الوَلَد والقرابات والعمّ وآبن العمّ والأخ وآبن الأخ . ولم يكونوا يخلعون ما قد لَبِسوه إلَّا على القرابات من أهل بيتِ المملكة خاصَّةً، لا يُجاوزونهم إلى غيرهم . فأما الخِلَع التى تُقطَع وتُتَّخذ للطبقات وسائر الناس، فتيك صِنْفٌ آخَرُ.

(١٢٩) وكان ملوك العرب منهم مَن يَلْبَسُ القميص مرارًا ويُغسل له غَسَلاتٍ: معاويةُ وعبدُ الملك وسليمانُ وعمرُ بن عبد العزيز وهشامٌ ومروانُ بن محمدٍ وأبو العباس وأبو جعفر والمأمونُ.

فأما يزيد بن معاوية والوليد بن يزيد ويزيد بن الوليد والمهدىّ والهادى والرشيد والمعتصم والواثق فإنهم كانوا لا يَلْبَسون القميص إلا نَبْسَةً واحدةً، إلا أن يكون الثوب نادرا مُعْجَبًا غريبًا.

فأما الجِباب والأردِيَة، فلم تزل الملوك تَلْبَسُها السَّنَةَ أو أكثرَ أيَّام السَّنة. ومنهم مَن كان يَلْبَس الجُبَّة والمِطْرَف[2] السنينَ الكثيرةَ . وليس الجباب والأردية كالقميص والسراويل. لأن القميصَ والسراويل هما الشِّعَار، وسائرَ الثياب الدِّثارُ. ولذلك كره من كره إعارة لُبْسها[3]

(١) أى مرّات. والعركة المرة الواحدة. وفى صـ : مرات.

(٢) هو رداء من خز مربّع له أعلامٌ. ولم يذكره دوزى Dozy فى "معجم أسماء الثياب عند العرب".

(٣) سـ : إعادة.

✣

طيب الملوك

وأخلاق الملوك فى العِطْر ومَسِّ الطِّيب وتغلُّل الغالية[1] تختلفُ.

فمن الملوك مَن إذا مَسَّ الطِّيبَ وتغلَّلَ[2] بالغالية لم يَعُدْ إلىٰ مَسِّ طِيبٍ ما دام عَبَقُها فى ثوبه.

ومن الملوك مَن كان إذا مَسَّ الطِّيبَ وتغلل[2] بالغالية فتضوّعتْ منه وعَلِقَتْ بثيابه، أمر بصبِّ ماء الورد[3] علىٰ رأسه حتّىٰ يسيل. فإذا كان من غَدٍ، فعل مثلَ ذلك. (١٣٠)

فأما مَن كان لا يَمَسُّ طِيبا مادام يجد عَبَقَ الطِّيب فى ثيابه: فأردشير بن بابك وقبادُ [بن فيروز] بن يزدجرد وكسرىٰ أبرويز وكسرىٰ أنوشروان؛ ومن ملوك العرب: معاويةُ وعبدُالملك والوليدُ وسليمانُ وعمرُ بن عبد العزيز وهشامٌ ومروانُ [بن محمد]؛ ومن خلفاء بنى العباس: أبو العباس وأبو جعفر والمأمونُ.

وكان المعتصم قلَّما يَمَسُّ الطِّيبَ. وكان يذهب فى ذلك إلىٰ تقوية بَدَنِه وإعانته علىٰ شدّة البطش والأَيْد. وأما فى أيام حروبه، فكان مَن دنا منه وجد رائحة صدإ السلاح والحديد من جسمه.

---

(١) فى حاشية صـ: "أبو نصر: سألتُ الأصمعىَّ هل يجوز تغلَّلتُ من الغالية؟ قال: إن أردتَ أنك أدخلتَها فى لِحيتك أو شاربك، فجائزٌ. وكذلك غلَّلتُ بها لِحْيَتى؛ شُدِّد للكثرة. صحاح.

(٢) فى تاج العروس: غلَّ الدُّهْنَ فى رأسه أدخله فى أُصول شعره، وغَلَّ شعره بالطِّيب أدخله فيه". [وانظر صفحة ٦٧ من هذا الكتاب والحاشية ٢ منها].

(٣) صـ: الماورد. [وقد استعمل الكُتَّاب هذا التركيب المزجىّ ونسبوا إليه فقالوا: الماوردىّ].

زيارة الملوك تكريما لرجالهم، وأنواعها

ومن أخلاق الملوك الزيارةُ لمن خُصَّ بالتكرمة منهم وآثروه المنزلة ورفع المرتبة.

وزيارة الملك على أربعة أقسام: فمنها الزيارة للطاعمة والمنادمة، ومنها الزيارة للعيادة، ومنها الزيارة للتعزية فى المصيبة(١)، ومنها الزيارة للتعظيم فقط.

وأكبر هذه الأقسام وأرفعُها ذكراً الزيارةُ للتعظيم.

(١٣١) لأن هذه الأقسام الثلاثة أكثر ما تقع وتتفق بسؤال المزور المَلِكَ وتَلَطُّفِه(٢) فى ذلك.

---

(١) من هذا القبيل ما تفضّل به مولانا الخديو المعظَّم الحاجّ عبّاس حلمى الثانى على المأسوف عليه بطرس غالى باشا رئيس مجلس النظار وناظر الخارجية سابقا، بعد أن آغتاله يدٌ أثيمة فى ١٠ صفر سنة ١٣٢٨ (٢٠ فبراير سنة ١٩١٠). فقد يمّم المستشفى (حفظه الله) بموكبه الجليل فى يوم إصابته، ثم تنازل بالتوجه إلى دار الفقيد بالفجّالة فى القاهرة، عقب مماته فى ١٢ صفر (٢٢ فبراير) وواسى بنفسه أولاد القتيل وقرابته. فخفف بذلك مُصابهم الجَلَل، وأعرب عن جميل عنايته بجميع صنوف رعيته.

ولقد آتّفق مثل هذا الصنيع الجميل، فى حادث من هذا القبيل، لأحد السابقين من ملوك النيل، وهو السلطان الملك الناصر حسن صاحب الجامع الأشهر القريب من القلعة. وذلك أنه فى يوم الاثنين ١١ شعبان سنة ٧٥٨ هـ حاول أحد المماليك آغتيال رئيس الحكومة وصاحب الحلّ والعقد فى ديار مصر، وأعنى به الأتابكيّ سيفَ الدين شيخو العُمَرىّ (وهو أوّل من تلقّب بآسم أمير كبير، وكانت وظيفته إذ ذاك تعادل رياسة مجلس النظار فى أيّامنا هذه)، فضربه وهو فى الإيوان فى يوم الموكب بالسيف فى وجهه ثلاث ضربات. فوقع الأتابكيّ إلى الأرض مغشيًّا عليه. فحملوه إلى بيته وبه بعض رمق. وهنالك ضمّدوا جراحاته. فنزل السلطان من القلعة فى اليوم التالى وذهب بموكبه إلى داره وترجّل عن فرسه وواسى رئيس حكومته. ولكنّ الأتابكيّ مات فى يوم الجمعة ١٦ ذى القعدة من السنة المذكورة. فآحتفل السلطان بجنازته وحضرها بنفسه وصلّى عليه قبل دفنه. (راجع إبن إياس ج ١ ص ٢٠٤ — ٢٠٥)

(٢) فى سـ، صـ: تلطفه.

وربما رَفع الملكُ مرتبةَ الوزير وخصّه وقدّمه[1] على سائر بطانته، فيكون من حِيَل الوزير أن يتعالل فيعودهُ الملك، فيُظْهِرَ للعامّة منزلته عنده وتكرمته إيّاه وإيثاره له.

وأيضا، فقلَّ مَلِكٌ سأله وزيرُه أو صاحبُ جيشه أو أحدُ عظمائه زيارتَه إلّا أجابه إلى ذلك، و[لا][2] سيّما إذا علم أنّ غرضَه فى ذلك الزيادةُ فى المرتبة والتنويهُ بالذكر.

فإذا كانت الزيارةُ من المَلك على أحد هذه الأقسام الثلاثة، فهى منزلةٌ كان صاحبُها يحاولها[3] فبلغها، وأُمنيّةٌ طلبها فأدركها.

فأما الزيارة للتعظيم، فإنها لاتقع بسؤالٍ ولا بإرادة المزور. إذ كان ليس من أخلاق وزيرٍ ولا شريفٍ أن يقول للملك: زُرْنى لتعظّمَنى، ولترفعَ فى الناس من ذِكرى وقدْرى.

فإذا كان ذلك من المَلك ابتداءً، فقد علمنا أن تلك أرفعُ مراتب الوزراء، وأفضلُ درجات الأشراف[4].

---

(١) سر: وقرّبه.

(٢) [أُنظر الحاشية ٣ ص ٤٥ من هذا الكتاب].

(٣) صر: يأملها.

(٤) يدخل فى هذا الباب ماتكرم به أيضا الخديو المعظم الحاجّ عبّاس حلمى الثانى على عبده وصنيعته، وغرس نعمته، وخادم دولته، محمد سعيد باشا رئيس مجلس النظار وناظر الداخلية الحالىّ. فقد زاره بمنزله فى رمل الإسكندرية فى ١٥ رمضان سنة ١٣٢٩ (٨ سبتمبر سنة ١٩١١). وقد جمعت هذه الزيارة مزيّتين فى آنٍ واحد: مزية التكريم ومزيّة العيادة اللتين أشار إليهما الجاحظ. ولقد كانت هذه الزيارة على غير انتظار ألبتّة. وكنتُ حاضرًا ليلتها فى دار الوزير، وهو لا يعلم بذلك. لأنه قبل تشريف المليك بهنيهة، كان بملابس نومه. فما هو إلا أن فاجأنا الخبر بالتلفون، مبشرا بهذه الزيارة الجليلة. وقد كانت بعد ذلك بدقائق.

وذلك لعمرى يشابه كثيرا من الأيادى البيضاء التى أسداها الخلفاء والسلاطين فى مصر إلى رجالات دولتهم. أكتفى بذكر مثال واحد يضارع هذه الأكرومة. وذلك أن السلطان قايتباى الشهير بمآثره الجليلة فى خدمة العلم والأدب والفنون الجميلة نزل من قصره بالقلعة فى شهر رمضان سنة ٨٧٣ هـ لزيارة الأمير يشبك الدوادار الكبير، بمناسبة التوعك الذى حصل فى جسده. وكان هذا الأمير قد جمع فى يده أكبر وظائف الدولة على ذلك العهد، وهى: الاستادارية، والدوادارية، والوزارة، وكشوفية الكشاف. وقد عظم أمره جدّا حتى قال فيه ابن إياس: "ما أظنّ أن هذه الوظائف قد جُمعت لأحد من الأمراء قبله." (أُنظر "بدائع الزهور فى وقائع الدهور" ج ٢ ص ١٠٧–١٠٨)

وكان أردشير وأنوشروان إذا زارا وزيراً من وزرائهما أوعظيما من عظمائهما للتعظيم لالغيره، أرّخت الفرس تلك الزيارة، وخرجت بذلك التاريخ كُتُبُهُمْ إلىٰ الآفاق والأطراف.

(١٣٢) وكانت سُنَّة مَن زاره المَلك للتعظيم أن تُوغَر(١) ضياعهُ وتُوسَم خيلُه ودوابُّه لئلا تُسَخَّر، ولا تُمْتَهَنُ(٢). ويأتيه خليفةُ صاحب الشُّرْطَة فى كلِّ يوم مع ثلاثمائة راكبٍ ومائة راجلٍ، يكون ببابه إلىٰ غروب الشمس. فإن رَكِبَ كانت الرجّالة(٣) مُشاةً أمامَهُ، والركبان من خلفه؛ ولا يُحبس أحدٌ من حامّته وخاصّته لجناية جنَاها؛ ولا يُحكَم علىٰ أحدٍ من عبيده بحُكمٍ؛ وإن وجب علىٰ أحدٍ من بِطانته حدٌّ، وُجِّهَ به إليه ليرىٰ فيه رأيه؛ ويُؤَخَّرُ عليه وظيفةُ ماعليه من خراج أرضه حتّىٰ يكون هوالحامل له؛ وتُقَدَّم هداياه فى النيروز والمهرجان علىٰ كلِّ هديّة وتُعْرَض علىٰ المَلك؛ ويكون أوّلَ مَن يأذَنُ له الحاجبُ؛ ويكون من المَلك إذا ركبَ عن يمينه متزوِيًا؛ وتكون مرتبتُه إذا قعد عن يمينه؛ وإذا خرج من دار المملكة، لم يقعُدْ بعدَه أحدٌ.

---

(١) فى ص: "توعر" وفى ص: "يوغر". يقال أوغر المَلكُ الرجُلَ الأرضَ: جعلها له من غير خراج، أو هو أن يُؤَدِّىَ الخراج إلى السلطان الأكبر فرارًا من العُمّال (قاموس). وهذا المعنى الثانى هوالذى أراده الجاحظ، لقوله بعد ذلك بخمسة أسطر: "ويؤخر عليه وظيفة ماعليه من خراج أرضه حتى يكون هوالحامل له".

(٢) ص: ولا تمهن.

(٣) ص: الرجال.

(٤) ص: وعامته.

* وكانت ملوك آل ساسان لاتزور أحدًا لعلّةٍ من هذه العلل التى قدّمنا ذكرها، فينصرف بخلعةٍ(١) أو طِيبٍ أو تحفةٍ أو هديّةٍ من جاريةٍ أو غلام. غير أنه كان إذا نزل الملك، وَطَّأَ لرِجْلِه(٢) فَرَسًا رائعا بسرجٍ مُذْهَبٍ وأداةٍ تامّةٍ، فقُدِّم إليه إذا أراد الانصراف. فكان الأمر كذلك، حتّى ملك بهرام بن يَزْدِجِرْدَ. فكان ينادم الأساورة من أبناء أهل الشرف، فيخلع عليه(٣) فى كلّ ساعةٍ خِلعة مجدّدة، ويشتهى الزامرةَ والمغنّية والرقاصةَ فيأخذُها. وكان أوّلَ مَن أطلق يدَه فى ذلك، لغَلَبَة اللهْوِ عليه وإيثارِه هواه.

فأما مَن كان من ملوكهم قَبْلَهُ، فعلىٰ الأمر الذى ذكرنا والحكاية التى أدّينا(٤). *

* * *

إستقبال الناس فى الأعياد

ومن أخلاق الملك القعود للعامّة يومًا فى المهرجان، ويومًا فى النيروز. ولا يُحْجَبُ عنه أحدٌ فى هذَيْنِ اليومَيْن من صغيرٍ ولا كبير، ولا جاهلٍ ولا شريف(٥).

وكان المَلِك يأمر بالنداء قبل قعوده بأيام، ليتأهَّبَ الناس لذلك. فيُهيِّئُ الرجُلُ القِصَّة، ويُهيِّئُ الآخَرُ الحُجَّةَ فى مظلمته، ويصالِحُ الآخَرُ صاحبَه إذا علم أن خَصمه (١٣٣)

(١) لعلّه: فتنصرف. وبقية الكلام يدلّ على أن الضمير هنا يرجع للملوك ولعل الفاعل مقدّر ويكون المعنىٰ: فينصرف الملك منهم.

(٢) أى: وطأ المزور لرِجْل الملك الزائر.

(٣) أى الأسوار المزور.

(٤) هذه الفقرة المحصورة بين نجمتين * * منقولة عن صه.

(٥) وهذا أيضا من منقولات الجاحظ عن آيين الفرس.

يتظلَّم منه إلىٰ المَلك. فيأمُرُ الموبَذَ أن يُوَكِّلَ رجالا من ثقات أصحابه فيقفون بباب العامّة، فلا يُمْنَع أحدٌ من الدخول علىٰ المَلك. وينادى مُناديه: "مَن حَبَسَ رجُلاً عن رفع مظلمته، فقد عصىٰ الله وخالف سُنَّة الملك؛ ومَن عصىٰ الله، فقد أَذِنَ بحربٍ منه ومن الملك."

التظلم من الملك إلى القاضى

ثم يُؤْذَنُ للناس وتُؤْخَذُ رِقاعُهم، فينظرُ فيها. فإن كان فيها شئ يُتَظَلَّمُ فيه من المَلك، بُدِئَ به أوّلاً، وقُدِّم علىٰ كلِّ مظلمة. ويُحضِرُ المَلكُ الموبَذَ الكبير والدَّيْرَبَذ[1] ورأسَ سَدَنَة بيوت النار، ثم يقوم المنادى فينادى: "ليعتزلْ كلُّ مَن تظلَّمَ من الملك!" فيمتازون. ويقوم المَلك مع خصومه حتّىٰ يجثُوَ بين يدَىِ الموبَذ فيقول له: "أيها المُوبَذُ، إنه مامن ذنب أعظمَ عند الله من ذنب الملوك! وإنما خوّلها الله تعالىٰ رعاياها لتدفع عنها الظلم وتَذُبَّ عن بيضة المُلْك جَوْرَ الجائرين وظُلْمَ الظالمين. فإذا كانت هى الظالمة الجائرة، حُقَّ لِمَنْ دونها هدمُ بيوت النيران، وسلْبُ ما فى الأنواويس من الأكفان. ومجلسى هذا منك — وأنا عبدٌ ذليلٌ — يشبه مجلسك من الله غدًا. فإنْ آثرتَ الله آثرك، وإن آثرت الملك عذَّبك."[2] فيقول له المُوبَذ: "إن الله إذا أراد سعادة عباده، آختار لهم خير أهل أرضه. فإذا أراد أن يعرّفهم قدْره عنده، أجرىٰ علىٰ لسانه ما أجرىٰ علىٰ لسانك." ثم ينظر فى أمره وأمر خَصمه بالحقّ والعدل. فإن صحّ علىٰ الملك، ١٣٤

(١) سـ، صـ: الدمربد. [وآنظر صفحة ٧٧ من هذا الكتاب وحاشية ٢ منها، وصفحة ١٧٣ منه أيضا].

(٢) فى "محاسن الملوك" "أن الخصم هو الذى يقول ذلك الكلام للقاضى، لا الملك. (ص ٣٩)

شيءٌ أخذه به ؛ وإلّا حبس مَن ادّعى عليه باطلًا ، ونكّل به . ونُودي عليه : "هذا جزاء (١)

(١) فى تواريخ الإسلام غير كثيرة من هذا القبيل . فالخلفاء وآل بيتهم والملوك ووزراؤهم كانوا يساوون أقلّ الخصوم فى مجلس القاضى و يجرى عليهم الحكم الشرعىّ كما يجرى على سائر الناس . فقد تحاكم على بن أبى طالب أمامَ عُمر بن الخطاب (مستطرف ج ١ ص ١١٨) ، ثم تحاكم وهو خليفة مع ذمّىّ أمام القاضى شريح (ابن خلكان فى ترجمة شريح) ؛ وتحاكم هشام الأموىّ مع صاحب حرسه أمام القاضى فى دار الخلافة (ابن عبد ربه ج ٢ ص ٣٣٩) ؛ وخاصم رجل من حلوان مصر الخليفة عمر بن عبدالعزيز وتوجها معا الى مجلس القاضى فساوى بينهما فى كل شىء وقضى للرجل عليه (المحاسن والمساوى ص ٥٢٥ ، وفيها وفيما يليها وقائع أخرى من هذا القبيل لعمر بن الخطاب) ؛ وتحاكم المأمون بين يدى القاضى يحيى بن أكثم "محاضرات" الراغب ج ١ ص ١٢٤ و"المحاسن والمساوى" ص ٥٣٢ "والمستطرف" ج ١ ص ١١٩ ؛ وتحاكم إبراهيم بن المهدىّ مع بخيشوع الطبيب عند القاضى أحمد بن أبى دؤاد "العقد الفريد" ج ١ ص ٣٣ ؛ وتحاكم الوزير ابن الزيات فى مجلس القضاء ، وفى دار الوزارة "محاضرات" الراغب ج ١ ص ١٢٣ و ١٢٤ ؛ وتحاكم الأشعث عند شريح القاضى "العقد الفريد" ج ١ ص ٣٤ . والأمر أشهر من أن يذكر ، والوقائع أكثر من أن تحصر .

وأبدع من ذلك كله ماجرى بالقاهرة فى أيام الأيوبيين فقد روى السيوطىّ أنه فى سنة ٦٣٩ الهجرة تولى عبد العزيز المعروف بعز الدين بن عبد السلام المشهور بسلطان العلماء قضاء مصر والوجه القبلىّ . وكان قدم فى هذه السنة من دمشق بسبب أن سلطانها الصالح إسماعيل آستعان بالفرنج وأعطاهم مدينة صيدا وقلعة الشقيف ، فأنكر عليه الشيخ عز الدين وترك الدعاء له فى الخطبة ، وساعده فى ذلك الشيخ جمال الدين أبو عمرو بن الحاجب المالكىّ . فغضب السلطان منهما ، فخرجا إلى الديار المصرية ، فأرسل السلطان إلى الشيخ عز الدين (وهو فى الطريق) قاصدًا يتلطف به فى العود إلى دمشق . فآجتمع به ولاينه ، وقال له : ماتريد منك شيأ إلا أن تكسر للسلطان وتقبّل يده لا غير . فقال الشيخ له : يامسكين ! "ما أرضاه يقبل يدى فضلا عن أن أقبل يده ! ياقوم ، أنتم فى واد وأنا فى واد ! والحمد لله الذى عافانا مما آبتلاكم به !" فلما وصل إلى مصر ، تلقّاه سلطانها الصالح نجم الدين أيوب وأكرمه وولّاه قضاء مصر . فاتفق أن أستاذ داره فخر الدين عثمان بن شيخ الشيوخ (وهو الذى كان إليه أمر المملكة) عمد إلى مسجد بمصر ، فعمل على ظهره =

مَن أراد شَيْنَ المَلِك، وقَدَحَ فى المملكة!"(١)

= بناء طبلخاناه، وبقيت تضرب هنالك. فلما ثبت هذا عند الشيخ عز الدين، حكم بهدم ذلك البناء، وأسقط فخر الدين، وعزل نفسه من القضاء. ولم تسقط بذلك منزلة الشيخ عند السلطان. وظن فخر الدين وغيره أن هذا الحكم لا يُتأثَّر به فى الخارج. فاتفق أن جهز السلطان رسولا من عنده إلى الخليفة المستعصم ببغداد. فلما وصل الرسول إلى الديوان، ووقف بين يدَيِ الخليفة وأدّى الرسالة له، خرج إليه وسأله: هل سمعتَ هذه الرسالة من السلطان؟ فقال: لا، ولكن حَمَلَتها عن السلطان فخرُ الدين ابن شيخ الشيوخ، أستاذ داره. فقال الخليفة: إن المذكور أسقطه ابن عبد السلام، فنحن لا نقبل روايته. فرجع الرسول إلى السلطان حتى شافهه بالرسالة، ثم عاد إلى بغداد وأدّاها. ولما تولّى الشيخ عز الدين القضاء، تصدّى لبيع أُمراء الدولة من الأتراك، وذكر أنه لم يثبت عنده أنهم أحرار، وأن حكم الرِّق مستصحب عليهم ليبت مال المسلمين. فبلغهم ذلك، فعظم الخطب عندهم، واحتدم الأمر، والشيخُ مصمِّم لا يُصحح لهم بيعًا ولا شراءً ولا نكاحًا. وتعطّلت مصالحهم لذلك وكان من جملتهم نائب السلطنة، فاستشاط غضبًا. فاجتمعوا وأرسلوا إليه. فقال: نعقد لكم مجلسًا، وننادى عليكم لبيت مال المسلمين! فرفعوا الأمر إلى السلطان، فبعث إليه، فلم يرجع. فأرسل إليه نائب السلطنة بالملاطفة، فلم يفد فيه. فانزعج النائب، وقال: كيف ينادى علينا هذا الشيخ، ويبيعنا ونحن ملوك الأرض! والله لأضربنّه بسيفى هذا! فركب بنفسه فى جماعته، وجاء إلى بيت الشيخ، والسيفُ مسلولٌ فى يده. فطرق الباب. فخرج ولد الشيخ فرأى من نائب السلطنة ما رأى، وشرح له الحال. فما اكترث لذلك. وقال: يا ولدى أبوك أقلُّ من أن يُقتَل فى سبيل الله! ثم خرج. فحين وقع بصره على النائب، يبست يد النائب وسقط السيف منها، وأُرعدت مفاصله. فبكى وسأل الشيخ أن يدعو له، وقال: ياسيّدى، إيش تعمل! قال: أُنادى عليكم وأبيعكم! قال: فقيم تصرف ثمنها؟ قال: فى مصالح المسلمين! قال: مَن يقبضه؟ قال: أنا! فتمّ ما أراد. ونادى على الأمراء واحدًا واحدًا، وغالى فى ثمنهم ولم يبعهم إلّا بالثمن الوافى، وقبضه وصرفه فى وجوه الخير. ("حسن المحاضرة" ج ٢ ص ٩٨ و ٩٩ من النسخة المطبوعة على الحجر بالقاهرة). وقد روى السبكى هذه الحكاية بتفصيل فى ترجمة الشيخ عبد العزيز فى "طبقات الشافعية" (ج ٥ ص ٨٠ — ١٠٧)

(١) ص: أراد شرّ المملكة والقدح فيها بالباطل. [إقتطع صاحب "محاسن الملوك" هنا سياق الكلام، وأضاف حاشية نبه على أنها ليست من الخبر، وهذا نصها: "وذكر أن أحد خلفاء العلويين الفاطميين فعل مثل فعل هذا وجلس بين يدى قاضى القضاة مُحاكِمًا لخصم ولم يتحرك له القاضى عند حركته للقعود بين يديه وحكم القاضى بالحق بينه وبين خصمه فلما بتّ الحكم وقضى به، وثب مقبّلًا للأرض، جالسا دون مجلس الخليفة. فقال: والله! لو تحركت لى أولًا وخرج عن حكم الحقّ، لضربتُ عنقه"]

فإذا فرغ الملك من مظالمه فى نفسه، قام فحمد الله ومجّده طويلًا، ثم وضع التاج، علىٰ رأسه وجلس علىٰ سرير المُلْك، وٱلتفت إلىٰ قرابته وحامّته وخاصّته وقال: "إنى لم أبدأ بنفسى فأُنصِفُ منها إلّا لئلّا يطمع طامعٌ فى حَيْفى. فمَن كان قِبَلَه حقٌّ فليخرُجْ إلىٰ خصمه منه، إمّا بصلحٍ وإمّا بغيره."

فكان أقربُ الناسِ إلىٰ المَلِك [فى الحقِّ] كأبعدهم، وأقواهم كأضعفهم.(١)

فلم يَزَلِ الناس علىٰ هذا من عهد أردشير بن بابك ثم هَلُمَّ جَرّا حتى ملكهم يزدجرد الأثيم، وهو الحِسّ الباركر.(٢) ففيّر سنن آل ساسان وعاث فى الأرض وظلم الرعايا وأظهر الجَبَرِيّة والفساد، وقال: "ليس للرعيّة أن تنتصف من الراعى، ولا للسُّوقة أن تتظلّم من الملوك، ولا للوضيع أن يساوى(٣) الرفيع فى حَقٍّ ولا باطلٍ."

(١٣٥)

العقوبة الربانية للملك الظالم

فذكرت الأعاجِمُ فى كُتُبها وسِيَرِ ملوكها أنه بينما هو قاعد فى الإيوان ــ والناسُ علىٰ طبقاتهم ومراتبهم ــ إذ دخل من باب الإيوان فَرَسٌ مُسْرَجٌ مُلْجَمٌ، لم يُرَ قطُّ شيءٌ أحسنَ منه منظَرا، ولا أكمَلَ أداةً. فأهوىٰ نحو يزدجرد الباركر. فقامت إليه الأساورة(٤)

---

(١) روى صاحب "محاسن الملوك" هذه الآداب كلها فى تظلم الناس من الملك إلى القاضى وبالحرف الواحد تقريبا عن الجاحظ. (ص ٣٩ ــ ٤١)

(٢) هكذا فى سـ. والمشهور أنه يسمّى يزجرد المليم الأثيم، ويزدجرد الأثيم كما هو فى صفحة ١١٨ من هذا الكتاب. (أُنظر غرر أخبار الفرس وسيرهم الثعالبيّ صفحة ٥٣٩ ــ ٥٤٩). ولم ترد هذه الكلمات الثلاث فى صـ.

(٣) سـ: يساوى.

(٤) صـ: يزدجرد الأثيم

لتدفعه عنه. فجعل لايدنو منه أحدٌ إلّا رَمَحَه[(١)] فأرداه[(٢)]. وهو فى خلال ذلك يقصد إلى الملك. فقام إليه يَزْدَجِرْدُ وقال للأساورة: دَعُوهُ، فإنه إلىّ يقصد.

فدنا منه حتّى أخذ بمَعْرَفَتِه[(٣)]، فذَلَّ له الفَرَسُ وتطامَنَ حتّى ركبه. فلما جال[(٤)] فى متنه، خَطَا به خُطًا، ثم ردّه إلى قرار مجلسه، فنزل عنه وجعل يمسحه بيده، مُقبِلاً ومُدبِراً[(٥)]. حتّى إذا وجد الفَرَسُ منه مَمْكَنًا وغَفْلةً، رَمَحَهُ فأصاب حبَّة قلبه، فقتله. فقالت ٥

(١٣٦) الفُرْسُ: هذا مَلَكٌ من الملائكة، جعله الله فى صورة فَرَس، فبعثه لقتل يزدجرد، لمّا ظلم الرعيّة وعاث فى الأرض[(٦)].

ماصنعه بهرام جور لأخذ ملك أبيه

وكان بَهْرام جُور بن يزدجرد فى حِجر النُّعمان بن المُنذِر، مَلِك الحِيرة. وضعه أبوه عنده ليتأدّب بآداب العرب ويعرف أيامَها وأخبارَها ولغاتِها. فبلغه خبرُ أبيه، وأنّ الفُرْسَ ملّكتْ عليها رجُلاً ليس من أبناء ملوكها. فاستنهضَ النُّعمانَ بن المُنذِر واستنجده. ١٠ وقال: "إنّ لى عليك حقًّا، إذ كنتُ أحَدَ أولادك. وإنّ أبى قد مات وملّكتِ

(١) أى رفسه برجله أو برجليه. يقال ذلك للفرس والبغل والحمار وكل ذى حافر، وربما استعير لذى الخف. (تاج العروس)

(٢) أى فأهلكه. وفى صه: فأداره.

(٣) صه: بعرفه. ١٥

(٤) صه: حال.

(٥) صه: بشوبه.

(٦) قارن ذلك بما أورده الثعالبىّ (فى غُرر أخبار الفُرس) عن هذه القصّة وتفاصيلها مع اختلاف. (صفحة ٥٥١ ـ ٥٥٣)

الفُرْسُ رَجُلًا من غير بيت المُلْك. فإنْ أنت خَذَلْتَنى، ذهبَ مُلك آل ساسان.“ فقال له النُّعمان: ”ما أنا وآل ساسان، وهُمُ الملوكُ وأنا رعيَّةٌ؟ ولكنِّى أَخْرُجُ معك فى جيشى لتقوىٰ نِيَّتُك[1] وتصِحَّ عَزْمَتُك. ثم أنت أولىٰ بقومك، وهم أولىٰ بك.“ قال: فهذا أُريد.

فخرج النعمان مع بَهْرام حتّٰى صار بالمداين، وبلغ الفُرْسَ قدومُهما[2]. فخرجوا إلىٰ بَهرام، فقالوا: ما تريد؟ فقال: مُلْكَ أبى وإرْثَ آل ساسان. قالوا: إن أباك سامنا العذابَ أيَّامَ مدّته، فانفرد الله بقتله. فلا حاجة لنا فى أحدٍ من عَقِبِه. فقال بَهْرام: إنّ جَوْرَ أبى وظلْمَه لا يُلْزِمُنى لائمةً[3]، ولا يُكْسِبُنى ذمًّا[4]. وأنتم لم تَخْبُرونى، فيجب علىّ (١٣٧) حَمْدٌ أو ذمٌّ. قالوا: فإنّا قد أقمنا رجُلا نرضاه. فقال: إنّ هذا فسادٌ فى صُلب المملكة أنْ تُمَلِّكوا مَن ليس من أهلها. فإذ فعلتم، فامتحنونى وهذا الرجُلَ بمِحَنَةٍ توجب المملكة. قالوا: وما هى؟ قال: تعمِدون إلىٰ أسدَيْن ضاريَيْن فتجمعونَهما فى موضعٍ واحدٍ، وتضعون تاج المملكة بينهما، وتقولون لهذا الذى ملّكتموه أمْرَكم يأْخُذُهُ من بينهما. فإنْ فعل فهو أحقُّ بالملك وأوْلىٰ. وإن أبىٰ أن يفعل، وفعلتُ أنا ذلك، كنتُ أحقَّ بالملك منه. قالوا: نعرِضُ عليه هذا.

---

(١) صـ: مُنَّتك.

(٢) روىٰ الثعالبىّ هذه القصة بعبارة أكثر اختصارًا من الجاحظ. (غرر أخبار الفرس ص ٥٤٨)

(٣) صـ: لا يلزمنى لائمته.

(٤) صـ: مذمته.

فقالوا ذلك له ، فقال : ما أقدرُ على هـذا ، ولكنْ قولوا له فليفعلْ . فإن أخذ التاج من بين الأسدين فهو احقُّ بالملك وأَوْلى .

فأخذوا التاج وعمدوا (١) إلى أسدين فأجاعوهما ثم وضعوا التاج بينهما وقالوا لبَهرام : شأنُك ! فنزلَ بهرام عن فرسه وأخذ الطَّبَرْزِبنَ (٢) ومضى نحوهما . ثم بدا له فجعل الطبرزين في مِنْطَقَتِه . ودنا من الأسـدين فأهوى نحوَه ، فأخذ برأس أحدهما فأدناه من رأس الآخر ثم نطحه به حتّى قتلهما جميعا . وشدّ على التاج فأخذه من موضعه فجعله على رأسه . ١٣٨

فملكته الفُرْسُ أمرهم ، وانصرف النعمان إلى الحِيرة . وسار بَهْرام سِيرَةً حَسَنَةً

(١) صـ : وغدوا .

(٢) جمعه طبرزينات [انظر البيان والتبيين ج ٢ ص ٧٦] . وهـذا اللفظ مأخوذ من كلمة فارسية (تبر ، تبر) ومعناها الفأس . وهي آلة للقتال عبارة عن عمود له حدّان ، وكانوا يعلّقونها في السرج ليستخدمها الفارس في وقت النزال والبراز . وقد عرّب المشارقة وأهل الاندلس هـذا اللفظ الفارسيّ فيما بعدُ فجعلوه "طبرزين" . قال في "المُعجب في تلخيص أخبار المغرب" للرّاكشيّ (ص ٩٠) ما نصه " فخرج المعتمد وبيده الطبرزين ... فعلاه بالطبرزين الذي في يده ولم يزل يضربهُ به حتى بَرَدَ " . وقال في " المحاسن والمساوى " (ص ٥٩٣) . " وكان معه طبرزين فضرب به كسرى ... ثم ضربه بالطبرزين حتى مات " . (وانظر أيضا تاج العروس ، وبرهان قاطع ، وشفاء الغليل ، وتكملة المعجمات العربية لدوزي .)

كذلك كان الشأن عند كتّاب المشارقة . ولكنهم عادوا فاقتصروا على التعبير بالطبر . قال في صبح الأعشى (ج ١ ص ٣٦٥) ما نصه : "الطبر . وهو باللغة الفارسية الفأس . ولذلك يسمى الكُرْزُ الصُّلْب بالطَّبَرْزَذ يعني الذي يُكسر بالفأس . وإلى الطبر تنسب الطبردارية . وهم الذين يحملون الاطبار حول السلطان . . " .

وقد بقيت هذه الآلة مستعملة إلى ما بعد اختراع المدافع ثم انعدمت بالكلية . وكانت مستعملة بمصر إلى زمن الفتح العثماني . وقد رأيتُ منها رواميز كثيرة محفوظة بدار التحف العسكرية بالقسطنطينية . وأشار إليها ابن إياس في "بدائع الزهور في وقائع الدهور" مرات عديدة منها قوله : "وضربه بطبركان معه على وجهه فسقط إلى الأرض مغشيًّا عليه" (ج ١ ص ٢٤٧) ؛ وقوله : "خرج عليهم التركمان بالقسيّ والنُّشاب والسيوف والاطبار" (ج ٢ ص ١١٠) ؛ وقوله : "فلما خرجوا بهم قطعوهم بالاطبار قطعا قطعا . " (ج ٣ ص ٢٦٩)

وعَدَلَ فيهم، حتّى كان أحبَّ إليهم من جميع ملوك آل ساسان.(١)

إلا أن اللهو واللعب كان أغلبَ أحواله عليه.

✣

استقصاء الملك لأحوال رعيته

ومن أخلاق الملك السعيد البحثُ عن سرائر خاصّته وحاقته، وإذكاءُ العيون عليهم خاصَّةً وعلى الرعيّة عامَّةً.

وإنما سُمِّيَ المَلِك راعياً ليفحص عن دقائق أمور الرعيَّة وخَفِيِّ نيَّاتهم. ومتى غَفَل المَلك عن فحص أسرار رعيَّته والبحثِ عن أخبارها، فليس له من اسم الراعى إلا رَسْمُه، ومن المُلك إلا ذِكْرُه.

فأما الملك السعيد، فمن أخلاقه البحثُ عن كل خَفِيٍّ ودَفِينٍ(٢) حتّى يعرِفَه مَعْرِفةَ نفسِه عند نفسِه(٣)، وأنْ لا يكونَ شيءٌ أهمَّ ولا أكبرَ فى سياسته ونظام مُلكه من الفحص عمَّا قدّمْنا ذِكْرَه.

الملوك والخلفاء الذين اشتهروا بذلك

ولم يُرَ مَلِكٌ قطُّ كان أعجبَ فى هذا الأمر من أردشير بن بابك. ويقال إنه كان يُصبِحُ فيعلَمُ كلَّ شئ بات عليه مَن كان فى قَصَبَة دار مملكته من خيرٍ أو شرّ، ويُمْسى فيعلَمُ كلَّ شئ أصبحوا عليه. فكان متى شاء قال لأرفعهم وأوضعهم: كان

(١٣٩)

(١) روى ابن ظُفَر هذه الحكاية والتى قبلها بتطويل كبير وتفصيل كثير. (أنظر "سلوان المطاع فى عدوان الأتباع" المطبوع على الحجر بالقاهرة سنة ١٢٠٨ هـ من صفحة ١٠٠ إلى صفحة ١٠٤؛ وانظر ترجمته الى الإنكليزية للعلامة ميشل أمارى الطليانى Michel Amari، طبع لوندره سنة ١٨٥٢ ج٢ ص١٥٤–١٦٥).

(٢) صـ: ودقيق.

(٣) صـ: معرفة نفيه.

عندك فى هذه الليلة كَيْتَ وكَيْتَ.[١] ثم يحدِّثه بكلِّ ما كان فيه إلىٰ أن أصبح.

فيقال إن بعضهم كان يقول إنه كان يأتيه مَلَكٌ من السماء فيُخْبِرُه.[٢] وما كان ذلك إلا لتيقُّظه وكثرة تعهُّده لأمور رعيته.[٣]

ثم كان فيمن نأىٰ من أهل مملكته علىٰ مثل هذه الحال.

فيقال إن الأُمم كلَّها، أوَلَها وآخِرَها، وقديمَها وحديثَها، لم تَخَفْ أحدًا من ملوكها خَوْفَها أردشير بن بابك من ملوك الأعاجم ومَن كان قبلهم، وعمرَ بن الخطَّاب من خلفاء الإسلام.[٤]

فإنَّ عُمَرَ كان عِلْمُه بِمَن نأىٰ عنه من عُمَّاله ورعيَّته كعلمه بِمَن بات معه فى مِهادٍ واحدٍ، وعلىٰ وِسادٍ واحدٍ. فلم يكن له فى قُطرٍ من الأقطار ولا ناحيةٍ من النواحى عاملٌ ولا أميرُ جيشٍ إلا وعليه له عَيْنٌ لا يفارقه ماوجده. فكانت ألفاظُ مَن بالمشرق والمغرب عنده فى كلِّ مُمْسًى ومُصْبَحٍ. وأنت ترىٰ ذلك فى كُتُبِه إلىٰ عُمَّاله وعُمَّالهم

(١) بفتح التاء، وبكسرها أى كذا وكذا.

(٢) أُنظر التفصيل الذى أورده الأبشيهىّ فى "المستطرف" (ج ١ ص ١٠٨).

(٣) ورد هذا الخبر فى "المحاسن والمساوى" ص ١٥٣. وكان كسرىٰ أنو شروان أشدّ الناس تطلُّعا فى خفايا الأُمور وأعظم خلق الله تعالىٰ فى زمانه تفحُّصا وبحثا عن أسرار الصدور. وكان يبُثُّ العيونَ علىٰ الرعايا، والجواسيسَ فى البلاد ليقف على حقائق الأحوال ويطّلع علىٰ غوامض القضايا. فيعلم المفسد فيقابله بالتأديب، والمصلح فيجازيه بالإحسان. ويقول: متى غفل الملك عن تعرّف ذلك، فليس له من الملك إلا اسمه وسقطت من القلوب هيبته. (مستطرف ج ٢ ص ١١٤)

(٤) روىٰ ذلك فى "المحاسن والمساوى" ص ١٥٣

حتّى كان العامل منهم لَيَتَّهِمُ أقربَ الخلق إليه وأخصَّهم به. فساس الرعيـة سياسةَ (١٤٠)
أردشير بن بابك فى الفحص عن أسرارها خاصّة.(١)(٢)

ثم آقتفىٰ مُعاويَةُ فِعلَه وطَلَبَ أَثَرَهُ، فانتظم له أَمْرُه وطالتْ له مُدَّتُه.(٢)(٣)

وكذا كان زِيادُ آبن أبيه يَحتذى فِعل مُعاوية كآحتذاء مُعاوية فعل عُمَر. وفيما يُحكىٰ عنه أنّ رجُلا كلَّمه فى حاجةٍ له، فتعرّف إليه ـ وهو يظُنُّ أنه لا يعرِفه ـ فقال: أصلح الله الأمير! أنا فُلانُ بن فُلانٍ. فتبسَّم زِيادٌ وقال: تتعرّف إلىّ، وأنا أعْرَف بك منك بأبيك؟ والله إنى لأعرفك وأعرف أباك وجدَّك وأُمَّك وجدّتك، وأعرف هذا البُرْد الذى عليك، وهو لفلانِ بن فلانٍ. فَبُهِتَ الرجُل وأُرْعِبَ حتّى أُرْعِد[وكاد يُغشىٰ عليه].(٤)(٢)

وعلىٰ هذا كان عبد الملك بن مَرْوان، والحجّاج بن يوسف.(٢)(٥)

ثم لم يكن بعد هؤلاء أحدٌ فى مثل هذه السياسة حتّى مَلَكَ المنصور. فكان أَكْثَرُ الأُمور عنده معرفةَ أحوالِ الناس، حتّى عَرَف الولىَّ من العدوِّ والمُداجى من المُسالِم.(٦)
فساس الرعيَّة ولِبسها(٧)، وهو من معرفتها علىٰ مثل وَضَح النهار.(٨)

---

(١) وآنظر ماوقع له مع النفر الذين كانوا يشربون المزر خفية ومع المـرأة التى جاءها المخاض، (فى "المستطرف" ج ١ ص ١٠٨ وج ٢ ص ١١٤ و١١٥)

(٢) روىٰ ذلك فى "المحاسن والمساوى" ص ١٥٤ .

(٣) أُنظر ماجاء فى المستطرف (ج ٢ ص ١١٥)

(٤) روىٰ صاحب "المستطرف" الحكاية التى أوردها الجاحظ (ج ٢ ص ١١٥ وج ١ ص ١٠٨)

(٥) "المستطرف" (ج ٢ ص ١١٥)

(٦) روىٰ ذلك فى "المحاسن والمساوى" ص ١٥٤ .

(٧) لبسها أى تملّى بها دهرا طويلا.

(٨) أُنظر التفصيل الذى أورده فى "المستطرف" (ج ٢ ص ١١٥ ـ ١١٧)

(١٤١) ثم دَرَسَتْ هذه السياسةُ حتّى مَلَكَ الرَّشيدُ. فكان أشدَّ الملوك بحثا عن أسرار رعيَّته وأكثرهم بها عنايةً وأحزمَهم فيها أمرًا.

وعلىٰ نحو هذا كان المأمونُ أيامَهُ. والدليل علىٰ ما قلنا فيه ماشاهدنا من رسالته إلىٰ إسحاق بن إبراهيم فى الفقهاء وأصحاب الحديث، وهو بالشأم. خبَّر(١) فيها عن عيب واحدٍ واحدٍ، وعن حالته وأُموره التى خَفِيَتْ(٢) ـ أو أكثرُها ـ عن القريب والبعيد.

ثم ما عَلِمْتُ(٣) أنَّ أحدًا ممن كان دون السلطان الأعظم فى دهرنا هذا، كان أشدَّ علىٰ الأسرار بحثًا وأكثرَ لها فحصًا حتّى بلغ من هذا الجنس أقصىٰ حدِّه وآخرَ نهايته وأبعدَ مداهُ، وجَعَلَهُ(٤) أكثرَ شُغْله(٥) فى ليله ونهاره، إلّا إسحاق بن إبراهيم. فحدّثنى موسىٰ(٦) بن صالح بن شيخ، قال: كلَّمتُه فى امرأةٍ من بعض أهلنا وسألتُه النظر لها.

---

(١) صـ: حصر.

(٢) كان للمأمون ألف عجوز وسبعمائة، يتفقّد بهن أحوال الناس من الأشقياء ومَن يُحبُّه ويُبغضه ومَن يُفسد حُرَم المسلمين، وكان لايجلس إلى دار الخلافة حتى تأتيَه كلها. وكان يدور ليلا ونهارا مستترا. (محاضرات الأوائل)

(٣) صـ: علمنا. [وأهمل هذه الكلمة فى "المحاسن والمساوى" وآستعمل صيغة مطلقة فقال: ولم يكن أحد ممن كان الخ. ولكنه نسى ذلك فعاد وقال حدثنى موسىٰ بن صالح وهى من كلام الجاحظ كما تراه بعد كليات.]

(٤) هو المصعبىّ أمير بغداد.

(٥) روى ذلك فى "المحاسن والمساوى" ص ١٥٥.

(٦) هو موسى بن صالح بن شيخ (بالشين المعجمة والياء المثناة التحتية والخاء المعجمة) ابن عُمَيرة الأسدىّ. كان من ندماء الأمير إسحاق بن إبراهيم المُصعَبىّ أمير بغداد.

وآنظر أيضا القصة التى رواها صاحب "الأغانى" فى ج ٥ ص ٨٤ و ٨٥ وفيها إشارة اليه؛ وكذلك الحكاية التى رواها المسعودىّ عن هذا النديم فى "مروج الذهب" (ج ٧ ص ٢١١ و ٢١٢). وكانت وفاته فى سنة ٢٥٧ فى خلافة المعتمد على الله، وقد نيّف على التسعين. وقُبِض آبنه بعد أن عمّر ٩٩ سنة. ("مب" ج ٨ ص ٢١٠)

فقال: ياأبا محمد! من قصّة هذه المرأة ومن حالها ومن فعلها[1]. قال: فوالله! لم يَزَلْ يصِفُها ويصِفُ أحوالَها حتّى بُهِتُّ[2].

[وحدَّث أبو البرق الشاعر قال: كان يُجرى عليّ أرزاقا فدخلتُ عليه، فقال بعد أن أنشدته: "كم عيالُك؟ تحتاج فى كلّ شهر من الدقيق إلىٰ كذا ومن الحطب إلىٰ كذا." فأخبرنى بشيءٍ من أمر منزلى ممّا جهلت بعضه وعلمه كلّه[3].]

وحدَّثنى[4] بعضُ مَن كان فى ناحيته، قال: رَفَعْتُ إليه رُقْعَةً أسألُه فيها إجراءَ أرزاقى. فقال: كم عيالُكَ؟ فزِدْتُ فى العدد. فقال: كَذَبْتَ! فَبُهِتُّ وقلتُ فى نفسى: يانَفْسُ من أين عَلِمَ أنى كذبتُ! فأقمتُ سنةً لا أجترئُ علىٰ كلامه. ثم رفعتُ إليه رُقْعَةً أخرىٰ فى إجراء أرزاقى. فقال: كم عيالُكَ؟ فقلتُ: أربعةٌ. فقال: صدقتَ. فوقّع فى حاشية رقعتى: يُجْرىٰ علىٰ عياله كذا وكذا. ١٤٢

ولولا أنْ يطولَ كتابنا فى إسحاق وذكره، لحكيناعنه أخبارًا كثيرةً. وهى من هذا الجنس، وفيما ذكرناه كفاية.

التمييز بين الاولياء والأعداء.

فعلىٰ الملك أن يُمَيِّزَ بين أوليائه وأعدائه بالفحص عن أسرارهم ودقيق أخبارهم، حتّى إنْ أمكنَه أن يعرِف مبيتَ أحدِهم ومَقِيلَه وما أحدث فيهما، فَعَلَ.

---

(١) يعنى: من قصتها كيت وكيت. وقد ترك المؤلف الخبر لأنه معلوم. وهذه عادة شائعة بين أكابر الكتّاب.

(٢) هذه الكلمة مضبوطة فى س: بَهَتَ. [وهو خطأ ظاهر من الناسخ. وقد روى الأبشيهى هذه القصة ونسبها للمأمون. (المستطرف ج ١ ص ١٠٨)]. روى ذلك فى "المحاسن والمساوى" ص ١٥٥.

(٣) هذه الزيادة من "المحاسن والمساوى" ص ١٥٥.

(٤) رجع صاحب "المحاسن والمساوى" هنا إلى صيغة المطلق فقال: حدث بعض من كان الخ. وذكر القصة بتمامها وبحروفها. (ص ١٥٥)

فإنّ الرعيَّة لا تَسْكُنُ قلوبَها جَلالةُ مَلِكها ـ ولو عبدتْه الجنُّ والإنْسُ ودانتْ له ملوكُ الأُمم كلُّها ـ حتّى يكون أشدَّ إشرافاً(١) عليها وأكثر بحثاً عن سرائرها، من أُمِّ الفريد(٢) عن حركته وسكونه.

***

بماذا تطول مدّة الملك

وأيضًا فإنه يُقال فى بعض كُتُب(٣) الأوائل فى مواعظ الملوك وآدابها: ٥

"إن المَلك تطول مدّته إذا كانت فيه أربع خصال:

إحداها، أنه لا يرضى لرعيَّته إلّا ما يرضاه لنفسه؛

والأُخرى، أنْ لا يسوِّف عَمَلًا يخاف عاقبته؛

(١٤٣) والأُخرى، أن يجعلَ ولىَّ عهده مَن ترضاه وتختارُه رَعاياه لا مَن تهواه نفسُه؛

والرابعة أن يَفْحَصَ عن أسرار الرعية، فَحْصَ المُرْضِع عن منام رضيعها." ١٠

وقد نجد مِصداقَ هذا القول ونشهدُ به. وذلك أنا لم نر مدّةً طالتْ لمَلكٍ عربىٍّ ولا عجمىٍّ قطُّ إلّا لمن فَحَصَ عن الأسرار، وبَحَثَ عن خفىِّ الأخبار، حتّى يكونَ فى أمر رعيَّته على مِثْلِ وَضَحِ النَّهار.

---

(١) فى سـ: إشراف.

(٢) فى سـ: "سرائرها فى الفريد". [ولما لم يكن للجملة معنًى أرتضيه فقد صححتُها على ماهو فى المتن ليكون المعنى "أن الملك يجب أن تكون عنايته بهذه الامور أكثر من عناية الأُمِّ بحركة ولدها الوحيد الفريد وبسكونه." وبذلك يستقيم المعنى وينسجم الكلام. ويؤيد هذا التخريج قول الجاحظ بعد ذلك بستة سطور: "والرابعة أن يفحص عن أسرار الرعية فحص المرضع عن منام رضيعها."] ١٥

(٣) فى سـ: الكتب.

واجبات الملوك عند الأحداث الخطيرة

ومن أخلاق الملك، إذا دَهمَهُ أمرٌ جليلٌ من فَتْقِ ثَغْرٍ أو قَتْلِ صاحبِ جيشٍ أوظهورِ عَدُوٍّ يدعو إلىٰ خلاف المِلَّة أو قوةٍ مناوئٍ، أنْ يترك الساعات التى فيها لَهْوُهُ ويجعلها وسائرَ الساعات فى تدبير مكايدة عدوِّه وتجهيز جنوده وجيوشه، وأنْ يصرف فى ذلك شُغْله وفِكْره وفراغه (علىٰ مثل ما فعل مَن مضىٰ من ملوك الأعاجم وغيرها) ولا يجعل للتسويف والتمنِّى وحُسن الظنِّ بالأيام نصيبًا.

فإنّ هذا عَجْزٌ من المَلك ووَهْنٌ يدخل علىٰ المُلك.

سنة الأعاجم إذا دهمتهم الكوارث والعظائم

وكانت ملوك الأعاجم، إذا حَزَبها مِثلُ هذا، أمرتْ بالموائد التى كانت توضع فى كل يوم أن تُرفَعَ وظائفُها، واقتصرتْ علىٰ مائدةٍ لطيفةٍ تقرُبُ من الملك ويحضرها ثلاثةٌ: أحدهم مُوبَذان مُوبَذ والدِّيربَذ[1] ورأس الأساورة. فلا يُوضع عليها إلا الخبزُ والمِلْحُ والخَلُّ والبَقْلُ. فيأخذ منه شيأً هو ومَن معه. ثم يأتيه الخبَّاز[2] بالبزماورد[3] فى طبق. فيأكلُ

(١) فى س: والدموبذ. وفى ص: الربر. [وانظر الحاشية ٢ صفحة ٧٧ وصفحة ١٦٠ من هذا الكتاب].

(٢) الخبّاز (هنا وفى كتب المسعودىّ وفى كتاب الأغانى) معناه خادم المائدة، لا بمعنىٰ الذى يصنع الخبز. وذلك هو الذى نسبه الآن بالسفره جى.

(٣) قال عاصم افندى فى ترجمة المعجم الفارسى "برهان قاطع" إلى اللغة التركية ما معناه "بزماورد هو طعام يسمّى لقمة القاضى، ولقمة الخليفة، ولقمة الست، وهو مصنوع من اللحم المقلىّ بالزبد والبيض. ويقال فيه أيضا برماورد بالراء المهملة". وقال الشهاب الخفاجىّ فى "شفاء الغليل" ما نصه: "زماورد، والعامة تقول بزماورد. كلمة فارسية استعملها العرب للرقاق الملفوف ما لحم. كذا فى حواشى الكشاف. وفى القاموس: الزماورد بالضم طعام من البيض واللحم. وفى كتب الأدب: طعام يقال له لقمة القاضى ولقمة الخليفة. ويسمّى =

منه لُقْمة.[1] ثم يَرفَعُ المائدةَ ويتشاغلُ بتدبير حَرْبه وتجهيز عساكره.[2] ولا تزال هذه حاله حتّى يأتيه عن ذلك الفتق مايرتقه، وعن ذلك العدوّ مايُحِبُّ. فإذا أتاه، أمَرَ أنْ يُتَّخَذَ له طعامٌ مثلُ طعامه الأوّل، وأمَرَ الخاصّة والعامّة بالحضور. وقامت الخطباء أوّلا بالتهنئة له والتحميد لله تعالىٰ بالفتح عليه والنصر له. ثم قام المُوبَذ فتكلّم، ثم الوزراء بنحوٍ من كلامِ الخطباءِ. ثم مدّ الناس أيديهم إلىٰ الأطعمة علىٰ مراتبهم. فإذا فرغوا، بُسِط للعامّة في ظهر الإيوان، وللخاصّة في صَحْنِه بحضرة الملك. وقَعَدَ صاحبُ الشُّرْطة للعامّة، كقعود الملك للخاصّة. ثم دعا بالمغنّين وأصحاب الملاهي.

وكانوا يقولون: إنّ حقّ شكرِ النعمة أن يُرىٰ أثَرُها.

= بخراسان نواله؛ ويسمى نرجس المائدة وميسر ومهيأ." والذى فى شرح القاموس فى مادة (ورد) يماثل هذا الكلام، ولكنه قال فى مادة (زم رد) إن الزماورد دواء معروف، ووعد بشرحه فى مادة (ورد) ولم يفعل. ويتلخص من هذا البيان أن الياء أصلية فى بنية الكلمة كما يشهد به صاحب "برهان قاطع" وكما يدل عليه استعمال الجاحظ. وربما رأىٰ العرب التخفيف فحذفوا الياء من أوّل الكلمة. ولكن ذلك لايجوز معه القول بأن بزماورد من كلام العامة. ويكون هذا الطعام عبارة عما نسميه الآن (الكفتة). وأما لقمة القاضى فهى الآن فى مصر عبارة عن صنف من الحلوى يُتَّخذ من الدقيق مجونا بالسمن والسكر ثم يُقلىٰ ذلك المخلوط على أقراص مستديرة لها صومعة ربّما تكون فوقها قطعة من القشدة. ورأيتُ فى "كتاب مبادئ اللغة" لابن الخطيب الإسكافىّ المُتَوَفَّىٰ سنة ٤٢١ مانصه: "البزماورد هو المُهَنَّأ والمُيَسَّر. وقال بعض المتأخرين:

أكْلُ المُيَسَّر من رأسين، ياسَكَنى، * لايُستطاع ولا سيفانِ فى غِمد."

وقد ذكر صاحب "الأغانى" هذا الطعام. (ج ٤ ص ١٥٤)

(١) فى س: لُقَما.

(٢) روىٰ ذلك صاحب "محاسن الملوك" باختصار ووقف عند هذا المكان، ثم زاد أن ملوك الفرس كانوا يقولون: "أسعدُ الملوك مَن غَلَبَ عدوَّه بالحيلة." (ص ١٠٥)

[وكانت الخلفاء والأُمراء إذا دهمهم أمرٌ ـ فَزِعوا إلىٰ المنابر وحرّضوا الناس علىٰ الطاعة ولزوم الجماعة.(١)] -

(١٤٥) ما فعله معاوية أيام صفين

وفيما يُذكَرُ عن مُعاوية أنه قال: ماذُقْتُ أيّامَ صِفّينَ لَحْمًا ولا شحما ولا حُلْوًا ولا حامضا، ما كان إلا الخُبْزُ والجُبْنُ وخَشِنُ المِلْح [إلىٰ أن تمّ لى ما أردته](٢).

ما فعله عبد الملك عند خروج ابن الأشعث عليه

ويُحكىٰ عن عبد الملك بن مَرْوان أنّ صاحب إفريقيّة أهدىٰ إليه جاريةً تامّةَ المحاسن، شهيّةَ المُتَأَمَّلِ. قال: فلما أنْ دخلتْ علىٰ عبد الملك بن مَرْوان، نظر إليها وفى يده قضيبُ خَيْزُرانٍ. فصعّد ببصره إليها وصوّبه، ثم رمىٰ بالقضيب. وقال: رُدّيه علىّ. فَوَلّتْ. فنظر إليها مُقبلةً ومُدبرةً. فقال: أنتِ والله أُمْنِيّةُ المُتَمَنّى. قالت: فما يمنعُك ياأميرَ المؤمنين، إذْ كانت هذه صِفتى عندك؟ قال: بيتٌ قاله الأَخْطَلُ:

قومٌ إذا حاربوا، شدّوا مآزِرَهُمْ ∗ دون النساء، ولو باتتْ بأطهار(٣).

وكان هذا فى خروج عبد الرحمن بن محمد بن الأَشْعَثِ. ثم أمر بها أن تُصانَ وتُخْدَم. فلما فُتِحَ عليه، كانت أوّلَ جاريةٍ دَعا بها(٣).

ما فعله مروان آخر محمد عند ظهور العباسيين

ويُحكىٰ عن مَرْوان بن محمد الجَعْدِىّ(٤) أنه أقام ثلاثين شهرًا لم يطأْ جاريةً إلىٰ أنْ قُتِلَ. وكان إذا استهدفتْ إليه الجاريةُ قال: إليْكِ عَنّى! فوالله لا دنوتُ من أُنْثىٰ

---

(١) هذه الزيادة عن "محاسن الملوك" (ص ١١٠).

(٢) أورد صاحب "محاسن الملوك" هذا الخبر باختصار قليل وأضاف عليه الجملة التى زدناها فى المتن. (ص ١٠٥ ـ ١٠٦)

(٣) أورد هذا صاحب "محاسن الملوك" فى صفحة ١٠٦

(٤) آخر خلفاء بنى أُمَيّة [وانظر حاشية ٣ صفحة ١٠٦ من هذا الكتاب].

(١٤٦) ولا حَلَلْتُ لها عَقْدَ حَبْوَتِي، وخُراسانُ ترجُف بنَصْرٍ[١]، وأبو مُجْرِمٍ[٣] قد أخَذَ منه بالمُخَنَّقِ[٤]!

(١) ترجف بنصر أى تضطرب به. وهو نصر بن سيّار الذى ولّاه هشام بن عبد الملك إقليم خُراسان فلم يزل واليا عليه حتى وقعت الفتنة بظهور العباسيين وطلبهم الخلافة على يد صاحب الدعوة أبى مسلم الخراسانى. وكتب نصر إلى مَرْوان الجَعْدىّ آخر الخلفاء الأمويين يستنجده بالأبيات المشهورة، وهى:

أرى خَلَلَ الرَّماد وَمِيضَ نارٍ * ويوشك أن يكون له ضِرامُ.
فإنّ النارَ بالعُودَيْنِ تُذْكَى * وإنّ الحربَ أوّلها الكلامُ.
فإنْ لم تطفئوها، تَجْنِ حربًا * مُشمِّرةً يشيب لها الغلامُ.
أقول من التعجب: ليتَ شِعرى! * أأيقاظٌ أُمَيَّةُ أم نيامُ؟
فإن يَكُ قومنا أضحَوْا نيامًا، * فقل: قوموا، فقد حان القيامُ!
فهُبّوا عن رحالكم ثم قولوا: * على الإسلام والعَرَبِ السلامُ!

وأخباره معروفة، تراها فى "مروج الذهب" و"معارف" ابن قتيبة و"وفيات الأعيان" و"فتوح البلدان" وأبى الفداء و"الأغانى" وابن خلدون و"معجم البلدان".

(٣) فى ص: "أبو مخزوم". وهو تحريف من الناسخ. والإشارة هنا إلى أبى مُسلم الخُراسانىّ الذى كان قد ضيّق الخناق على نصر بن سيّار المذكور فى الحاشية السابقة. وقد لقبه مروان بأبى مجرم بدلا من أبى مسلم بمعنى أبى الذنب والإجرام. وقد بقى له هذا النبز فى الدولة العباسية. فإن المنصور خاطبه بعد أن قتله بقوله:

زعمتَ أن الدِّينَ لا يُقتضَى؟ * فاستوفِ بالكيل، أبا مُجْرِمِ!
اشرَبْ بكأسٍ كنتَ تَسْقِى بها، * أمَرَّ فى الحلق من العَلْقَمِ!

وقال أبو دُلامة: أبا مُجْرِمٍ، ما غيَّرَ اللهُ نعمةً * على عبده حتى يغيِّرها العبدُ!
أفى دولة المنصور حاولتَ غَدْرَةً؟ * ألا إنّ أهل الغدر آباؤك الكُرْدُ!
أبا مسلم خوَّفتنى القتلَ فانْحَى * عليك بما خوّفتنى الأسَدُ الوَرْدُ!

وانظر ابن خلكان فى ترجمته، و"شذرات الذهب" (ج ١ ص ١٩٨ و١٩٩) [وانظر ص ٨٢ من هذا الكتاب]. وانظر "البيان والتبيين ج ٢ ص ١٥٥"

(٤) لخص ذلك صاحب "محاسن الملوك" (ص ١٠٦). وقد أورد المسعودىّ هذه الحكاية، فقال: "وأقام مَرْوانُ أكثر أيامه لا يدنُو من النساء الى أن قُتِلَ. وتراءت له جارية من جواريه، فقال لها: والله لا دَنَوْتُ منك، ولا حَلَلْتُ لكِ عُقْدَةً، وخُراسان ترجف وتتضرّم بنصر بن سيّار، وأبو مُجْرِمٍ قد أخذ منه بالمخنق".
("مروج الذهب" ج ٦ ص ٦٣ و٦٤ طبع أوروبا؛ ج ٢ ص ١٥٩ طبع بولاق)

مكايدة الملوك فى الحروب

ومن أخلاق الملوك المكايدةُ فى حروبها .

ولذلك كان يقال ينبغى للملك السعيد أن يجعل المحاربة آخرَ حيلِه . فإن النفقة فى كلّ شىء إنما هى من الأموال ، والنفقةُ فى الحروب إنما هى من الأنفُس . فإنْ كان للحيَل محمودُ عاقبةٍ ، فذلك بسعادة الملك ، إذ رَبِحَ مالَه وحقَنَ دماء جيوشه . وإن أَعْيَت الحِيَلُ والمكايدُ ، كانت المحاربةُ من وراء ذلك .

فأسعدُ الملوك مَن غَلَبَ عَدُوَّه بالحيلة والمكر والخديعة .

وقد روينا عن نبيّنا (صلى الله عليه وسلم) مايُحقّقُ هذا ويؤكّده بقوله : "الحَرْبُ خِدْعَةٌ" .

وليس لأحدٍ من الخِدَع ما للملوك الأعاجم . والأخبارُ فى ذلك عنهم كثيرة . ولكنّا نقتصرُ من ذلك على حديثٍ أو حديثين .

خدعة بهرام جور

فمن ذلك مايُذكر عن بَهْرَام جُور أنه لمّا ملك بعد أبيه يَزْدَجِرْد ، بلغه أنّ ناحيةً من نواحى أطرافه قد أُخِذَتْ ، وغَلَبَ عليها العدوّ . فاستخفّ بها وأَظْهَرَ الاستهانةَ به حتّى قَوِىَ أمرُ ذلك العدوّ واشتدّت شوْكتُه . فكان إذا أُخْبِرَ بحاله ، استخفّ بأمره وصغّر من شأنه . حتّى قيل إنه قد زَحَف إليك ووجّه جيوشه إلى قَرَار دارك . فقال : دَعُوهُ فليس أمرُه بشىءٍ . فلمّا رأى وزراؤه تهاوُنه وتراخيَهُ عن أمرِ عدوّه واستهانَتَه به ، اجتمعوا إليه فقالوا : إنّ تَرَاخِىَ الملك عن عدوّه ليس من سياسة المُلك ولا تدبيرِ المملكة ، وقد قَرُب هذا العدوّ من قرار دار الملك ، وأمرُه كلَّ يوم فى عُلُوّ . فقال بَهرام : دعوه ، فأنا أعلمُ بضَعفه وصغَر شأنه منكم . وأقبلَ على اللهْو واللعب ، وتَرَكَ

مايجبُ عليه من الصَّمْد[1] لعدوّه والقصْد له . فلمّا دنا عدوّه منه وأشرفَ عليه وخاف الوزراء ورؤساء أهل المملكة اجتياحَهُ، اجتمعوا فتآمروا بينهم على توبيخ الملك وتعنيفه وإعلامه ماقد أشرفوا عليه من البَوَار والهَلَكة . وبلغه الخبر . فأمر مائتَىْ جارية من جواريه، فلَبِسْنَ الثيابَ المُصَبَّغَة المختلفةَ الألوان ، ووضعْنَ على رؤوسهنَّ أكاليلَ الرَّيْحان، وركِبْنَ القَصَبَ . وفعل بَهْرام كما فعلن . فلَبِسَ من ثيابهنَّ المصبوغة، وركِبَ قَصَبَةً . وأَذِن للوزراء، فدخلوا عليه . فلما رآهم، صاح بالجوارى . فمررْنَ يخطِرْنَ، وبَهرامُ خَلْفَهُنّ يُغَنِّى، وهُنَّ يغنِّينَ معه، ويَصِحْنَ ويَلْعَبْنَ . فلمّا رأى ذلك وزراؤه يئسوا منه واجتمعوا على خلعه . وبلغه الخَبَرُ. فدعا جاريةً من خاصّ جواريه، وقال : لكِ الويْلُ إنْ عَلِمَ أحدٌ من اهل المملكة ما أُريدُ أن أفعلَ ! ثم أمرها أن تَحْلِقَ رأسَه، فَحَلَقَتْه . ودعا بِمُدَرَّعَةِ صوفٍ فتدرّعها، وخرج فى جَوْف الليل ومعه قَوْسُهُ ونُشَّابُهُ . وتقدَّمَ إلى الجارية أن تُخْفِىَ أمْرَه وتُظْهِرَ أنَّهُ عليلٌ إلى رُجوعه إليها . ومضى وَحْدَهُ حتّى انتهى إلى طلائع العدوّ . فكَمَنَ فى مَغارٍ على ظهر الطريق . فجعل لا يَمُرُّ به طائرٌ فى السماءِ ولا وحشٌ فى البرِّ، إلّا وضع سَهْمَه منه حيثُ أَحَبَّ . وجعل يجمع كلَّ ماصاد من ذلك، فجمعه بين يديه حتّى صار كالشىءِ العظيم . قال : فمرّ به صاحبُ طليعة العدوّ، فنظر إلى أمرٍ بُهِتَ له . فأخذه وقال : ويلك ! ماأنتَ ومَن أنتَ ومِن أين أنت؟ قال : إنْ أعطيْتَنى الأمانَ، أخبرتُك ! قال : فَلَكَ الأمانُ ! قال : أنا غلامٌ سائسٌ، وإنّ مَوْلاىَ غَضِبَ علىّ ـ وكان لى مُحْسِنًا ـ فأوْجعنى ضربًا ونزع ثيابى وحَلَقَ رأسى وألبسنى هذه المُدَرَّعَة وأجاعنى . وإنّى طلبتُ غَفْلته ، فخرجتُ أطلبُ شيئا أصيدُه

(١) الصمْد هو القصْد كما فسره المؤلف بعده بواو العطف .

(٢) فى س ـ "وحاق" وقد اعتمدتُ رواية صـ .

فآكلُه . فلما أعجبنى كثرةُ ماصِدْتُ، أردتُ أن أرمىَ بكلِّ ما معى من هذه السهام، ثم أنصرِفَ .

فأخذه فحَمَلَهُ إلىٰ المَلِك فأخبَرَه بقصّته . فقال له المَلِك : ارْمِ بين يدىَّ ! فرمىٰ بين يديه . فكان لايضع سهمَه فى طائرٍ ولا غيرِه إلاَّ أصابه حيثُ أراد . فبُهِتَ المَلِك، وطال تعجُّبه . فقال : ويلك ! فى هذه المملكة مَنْ يرمى رِمايتَك ؟ فضحِك بَهْرام، وقال : أيها الملك ! أنا أخسُّهم رِمايةً وأحقرُهم قَدْرًا . وعندى جنسٌ آخَرُ من الثَّقافة[1] . قال : وما هو؟ قال : أُدْعُ لى بِإبَرٍ . فدعا له بها . فأخذ إبرةً فرمىٰ بها علىٰ عشرةِ أذرع، ثم أتبعها بأخرىٰ فشكَّها، ثم أتبعها بأخرىٰ فشكَّها كذلك، حتّى جَعَلَها سلسلةً قد تعلَّق بعضُها ببعض .

فبُهِتَ المَلِك ومُلِئَ قلبُه رُعْبًا . فقال له : ويلك ! مَلِكُكم هذا جاهلٌ ! أما يعلَمُ أنى قد قَرُبْتُ من قرار داره ؟ فضَحِك بَهْرام، وقال : إنْ أعطانى الملك الأمانَ، نصحْتُه . قال : قد أعطيتُك الأمان . قالَ : إنّ مَلِكًا إنما تركك آستهانةً بأمْرك، وتصغيرًا لشأنك، وعِلْمًا بأنك لاتخرُج من قَبْضَتِه . وذلك أنّى أخسُّ مَنْ فى دار مملكته وأحملهُم ذِكرًا . فإذا كنتُ ـ وأنا بهذه الحال ـ أقتلُ بألفِ سَهْمٍ ألْفَ رجُلٍ، فما ظنُّك بالمَلِك، وله مائةُ ألفِ عبْدٍ فى قرار داره، أصغرُهم شأنًا أكبرُ منّى؟ فقال له الملك : صَدَقْتَنى فيما قُلْتَ ! ولقد خُبِّرْتُ عن بَهرام من تصغيرِه لشأنى وآستخفافِه بأمرى ماطابَقَ خَبَرَك . وما تركنى أبْلُغُ هذا الموضِعَ من مُلْكِه إلاّ لِمَا ذَكرتَ .

فأمَرَ عظيمَ جيشه أن يرتحِلَ من ساعته . ونادىٰ فى الناس بالرحيل . ثم خرج لايلوى علىٰ شىءٍ، وأطلق بَهْرامَ . فانصرف بعد ثالثةٍ حتّى دخلَ داره ليلاً . فلمّا أصبح،

(١) الحذق والخفة والفطنة .

قَعَد للناس ودخل عليه الوزراءُ والعظماءُ. فقال: ماعندكم من خَبَرِ عدوّنا هذا؟ فأخبروه بانصرافه عنهم. فقال: قد كنتُ أقول لكم إنه صغيرُ الشأنِ، ضعيفُ المُنَّة[1].

ولم يعلم أحدٌ منهم ما كانت العلّة فى آنصرافه[2].

مكايد أبروين

وكان كسرىٰ أَبْرَوِيز، بعد بَهرام جور، صاحب مكايد وخِدَعٍ فى الحروب ونِكاية فى العـــدوّ[3].

(١٥١) وكان قد وجّه شَهْرَبَرَاز[4] لمحاربة مَلك الروم، وكان[5] مقدَّما عنده فى الرأْى والنَّجدة

---

(١) أى القوّة.

(٢) نقل هذه الحكاية بالحرف صاحب "تنبيه الملوك" (ص ٣٤ ــ ٣٨)، ولخصها صاحب "محاسن الملوك" (ص ١٠٧).

(٣) الحكاية الآتية نَقَلَها أيضا صاحب كتاب "تنبيه الملوك والمكايد" المنسوب للجاحظ، وفيها تحريف كثير وسَقَطٌ متواتر وآضطرابٌ فى النسب (ص ٢٢ ــ ٢٦).

(٤) فى سـ: شهر يزاد. وهو تصحيف من الناسخ، وفى صـ: شهر يار وقد صحف ناسخو ابن الأثير هـذا الآسم فجعلوه شهر يرازوشهر يزار، كما صحفوه ناسخ "مروج الذهب" فجعلوه مثل صـ شهر يار (وقد صححه العلامة بار بييه دومينار فى ترجمته فجعله شهر بار ليكون مطابقا للآسم الوارد فى تواريخ الروم.) وأما الصحيح فهو الذى آعتمدناه. (أنظر جميع المؤرخين وخصوصا الثعالبىّ فى "غرر أخبار ملوك الفرس" (ص ٧٠١ حيث أورد هذه القصة). وآنظر ابن الأثير. (ج ١ ص ٣٤٦ ــ ٣٤٩) وقد أورد قصة أخرى فى سبب آنتقاض شهر براز وفى الخديعة التى آستعملها أبروين لصدّ ملك الروم عنه. (وآنظر "التنبيه والإشراف" ص ١٥٦ و١٥٧).

وقد أورد هذه القصة برواية أخرىٰ فى "المحاسن والمساوى" ص ١٣٦ــ١٣٧. وسمى القائد "شهر براز" علىٰ الوجه الصحيح الذى آعتمدناه فى المتن.

(٥) فى سـ: فكان.

والبَسالةِ ويُمنِ النَّقيبة. فكان شهر براز قد ضيّق علىٰ ملك [الروم] قَرارَ داره[1] وأخذ بمُخَنَّقِه حتّىٰ همَّ بمُهادنته ومَلَّ محاربَتَه وطَلَبَ الكَفَّ عنه. فأبىٰ ذلك عليه شهر براز. وٱستعدّ له مَلك الروم بأفضل عُدّة وأتمّ آلة وأحدّ شوكة، وتأهّب للقائه فى البحر. فجاءه فى جمع لا تُحصىٰ عِدّته. قد أعدّ فى البحر كلَّ ما يحتاج إليه من مالٍ وسلاحٍ وكُراعٍ وآلةٍ وطَعامٍ وغيرِ ذلك، والسُّفُنُ مَشحونةٌ مُوقَرَةٌ. فبينا هو كذلك إذْ عَصَفَتْ ريحٌ فى تلك الليالى فقلَعتْ أوتادَ تلك السُّفن كلِّها وحَمَلَتْها إلىٰ جانب شهر براز، فصارتْ فى مِلكه. وأصبحَ مَلك الرُّوم، قد ذهبَ أكثرُ ما كان يملِكُ من الأموال والخزائن والعُدد والسِّلاح. فوجّه شهر براز بتلك الخزائن والاموال إلىٰ أبرويز. فلمّا رأىٰ أبرويز ما وجّه به شهر براز، كَبُرَ فى عينه وعظُم فى قلبه. وقال: ما نَفْسٌ أحقُّ بِطَيِّب الثناء ورفيع الدعاء والشكر علىٰ الفعل الظاهر من شهر براز! جاد لنا بما لا تَسْخُو به النفوس ولا تَطيب به القلوب! فجمع وزراءه وأمر بتلك الأموال والخزائن فوُضِعَتْ (١٥٢) نُصْبَ عينيه، ثم قال لوزرائه: هل تعلمون أحدًا أعظَمَ خَطَرًا وأمانةً، وأحرىٰ بالشكر من شهر براز؟ فقامت الوزراء فتكلّم كلُّ واحدٍ منهم، بعد أن حمد الله وشكره ومجّده، وأثنىٰ علىٰ المَلك وهنّأه، ثم ذكر ما خصّ الله به المَلك من يُمن نقيبةِ شهر براز وعفافه وطهارته ونُبله وعظيم عنايته. حتّىٰ إذا فرغوا، أمر بإحصاء تلك الأموال والخزائن. ثم قام أبرويز فدخل إلىٰ نسائه. وكان للملك غلامٌ يقال له رُسْتَهْ، وكان سَيِّءَ الرأْى فى شهر براز. فقال: أيها الملك! قد ملأ قلبَك قليلٌ من كثيرٍ، وصغيرٌ من كبيرٍ، وتافهٌ من عظيم، خانَكَ فيه شهر براز وآثر به نفسَه. ولئن كان المَلك، مع رأْيه الثاقب وحَزمه الكامل، يَظُنُّ أن شهر براز أدّىٰ الأمانة، لقد بَعُدَ ظَنُّه من الحقّ وخَسَّ

(١) فى سـ: فزار داره.

نَصِيبُه[1] . فوقع [فى] نفس أبرويز ما قال رُسْتَهْ، فقال له : ما أَظُنُّك إلَّا صادقًا. فما
(١٥٣) الرأْىُ عندك؟ قال : تَكتُبُ إليه بالقدوم وتُوهِمُه أنَّ بك حاجةً إلىٰ مناظرته ومشاورته فى أمرٍ لم تَجُز الكتابة به. فإنه إذا قَدِمَ، لم يُخَلِّفْ ما يملِكُ وراءه، إذ كان لا يدرى أيرجِعُ إلىٰ ما هناك أم لا. فيكون كلُّ ما يَقْدَمُ به نُصْبَ عينيك.

فكتب أبرويز إلىٰ شهر براز يأْمره بالقدوم عليه لمناظرته ومشاورته فى أمرٍ يدِقُّ عن الكتاب والمُراسلة.

فلما مضىٰ الرسول، أردفه برسولٍ آخَر. وكتب إليه : "إنى قد كنتُ كتبتُ إليك آمرُك بالقُدوم لأُناظرَك فى مُهِمٍّ من أمرى. ثم علِمْتُ أنَّ مُقامَك هناك أقدَحُ فى عدوّك وأنكىٰ له وأصلَحُ للملك وأوْفَرُ علىٰ المملكة. فأقِم وكُنْ من عدوّك علىٰ حَذَر، ومن غِرّته علىٰ تيقُّظٍ. فإنه مَن ذهب مالُه، حَمَل نفسَه علىٰ التلَف أو الفَلْج[2]. والسلام!"

وقال للرسول الثانى : إنْ قَدِمتَ فرأيتَه قد تأهَّبَ للخروج إلىّ وظهر ذلك فى عسكره، فادفَعْ إليه هذا الكتابَ . وكتبَ : "أما بعدُ، فإنى كتبتُ إليك وقد آستبطأْتُ جواب قُدومك وحَرَكتك. وعلمتُ أنَّ ذلك لأمرٍ تُصلِحه من أمر نفسك
(١٥٤) أو مكيدةِ عدوّك. فإذا أتاك كتابى هذا فخلِّفْ أخاك علىٰ عَمَلك وأْغِذَّ السيرولا تُعَرِّج علىٰ مُهِمٍّ ولا غيرِه. إن شاء الله!" . وإن لم تره آستعدّ للخروج ولا تأهّب له، فادفع إليه الكتابَ الأول.

---

(١) فى سه : "قسه". ولعل الصواب : "نصيبه". قال فى القاموس : "خسَّ نصيبَه جعله خسيسا دنيئا حقيرا." . ولم ترد هذه الكلمة ولا التى قبلها فى صه

(٢) فى سه : الفتح، وفى صه : الحتف . وقد صححتُ بما فى المتن ليكون المعنى ان الذى يذهب ماله يركب أخشن المراكب فإما أن يتلف و إما أن يظفر و ينجح . لأنه يكون فى حالة يأْس تحمله على المخاطرة بنفسه أو يفوز.

فقدمَ الرسولُ الثانى، وليس لشهر براز فى الخروج عزمٌ ولا خاطرٌ، ولا همَّ به. فدفع إليه الكتاب الأول. فقال شهر براز: أوّلُ كلِّ قَتلة حِيلَةٌ. وكان خليفة شهر براز بباب المَلك قد كتب إليه ما كان من قول رُسْتَهْ للمَلك وما كان من جواب المَلك له. ثم نازعت أبرويزَ نفسُه ودعاه شرهُهُ إلىٰ إعادة الكتاب إلىٰ شهر براز بالقدوم عليه.

فلمّا قرأ شهر براز كتابه الثالث قال: كان الأمر قبل اليومِ باطنًا، فأمّا اليومَ فقد ظهر.

فلمّا علم أبرويز أنَّ نيّة شهر براز قد فَسَدت وأنه لا يقدُمُ[1] عليه، كتب إلىٰ أخى شهر براز: "إنى قد ولّيتُك أمرَ ذلك الجيش ومحاربةَ ملك الروم. فإنْ سَلَّمَ لك شهر براز ما ولّيتُك، وإلّا فحارِبْهُ!"

فلمّا أتاه كتابُهُ أظهره وبعث إلىٰ شهر براز يخبره أن الملك قد ولّاه موضعه، وأمَرَهُ بمحاربته إن أبىٰ أن يُسَلِّمَ إليه ما ولّاه. فقال له شهر براز: أنا أعلم بأبرويز منك. هو صاحب حِيَل ومكايد، وقد فَسَدتْ نيته لى ولك. فإن قتلنى اليومَ، قَتلَك غدا؛ وإنْ قَتلك اليومَ، كان على قَتلى غدًا أقوىٰ[2].

ثم إنَّ شهر براز صالَحَ مَلك الروم، لمّا خاف أبرويز. وتوثّق كلُّ واحدٍ منهما من صاحبه. وأجتمعا علىٰ محاربة أبرويز. فقال له شهر براز: دَعْنى أتولّى محاربته، فإنّى

(١) هذه رواية صحيحة. وأما سائر رواياتها: يقدر

(٢) رواية ابن الأثير فى هذا الموضوع أحسن وأمتن. ومحصلها أن شهر براز لما امتنع عن إجابة كسرى، بعد طلبه ثلاث مرات، أمر الملكُ بعزله وتولية أخيه فَرْخان الذى كان معه، وأمره بقتله. فلما أراد فرخان أن يقتله، قال له شهر براز: أمهلنى حتى أكتب وصيتى. ثم أحضر درجا وأخرج ثلاثة كتب من كسرى يأمره فيها بقتله، وأطلعه عليها، وقال له: أنا راجعتُ فيك أربع مرّات ولم أقتلك، وأنت تقتلنى فى مرة واحدة. فاعتذر فرخان إليه وأعاده إلى الإمارة. واتفقا على موافقة ملك الروم على كسرى. (ج ٢ ص ٣٤٨)

أبصرُ بمكايده وعَوْراته[1] . فأبى عليه مَلكُ الروم، وقال: بل أَقِمْ فى دار مملكتى حتّى أتولّى أنا محاربته بنفسى. فقال شهرباز: أمّا إذ أبَيْتَ علىّ فإنى مصوِّرٌ لك صورةً، فاعمَلْ بما فيها وامتثِلْها.

ثم صوّر له كلَّ منزلٍ ينزِلُه بينَه وبين أبرويز فى طريقه كلِّه، وأىّ المنازل ينبغى له أن يقيم فيه، وأيّها يجعلها طريقا وسيراً ماضيا حتّى اذ أقامه من طريقه كله على مِثل وَضَحِ النهار، قال له: فإذا صرتَ بالنَّهْرَوَانِ، فأَقِمْ دُونه ولا تقطعْهُ إليه، واجعله منزلك وجهِّزْ جيوشَك وعساكرك إليه.

فمضى ملك الروم نحوه. وبلغ أبرويزَ الخبرُ فضاق به ذَرْعه، وارتجّ[2] عليه أمْرُه. فكان أكثرُ جنوده قد تفرّقوا لطلب المعاش، لقطعِه عنهم ما كان يجب لهم من إقطاعاتهم وأرزاقهم. فبقِىَ فى جُنْدٍ كالَيْتَ أكثرُهم هَزْلَى أضِرّاء[3]. (١٥٦)

وكان ملك الروم يعمل على ما صوّره له شهرباز فى طريقه كلِّه، حتّى إذا أشرَفَ على النَّهْرَوَانِ، عَسْكَرَ هناك واستعدّ للقاء أبرويز. وقد بلَغَهُ قلّةُ جموعه وتفرُّق جنوده وسُوءُ حال مَن بقِىَ معه. وكان فى أربعمائة ألف، قد ضاقت بهم الفِجاج والمَسالك. فطَمِعَ فى قتل أبرويز ولم يَشُكَّ فى الظَّفَر به.

فدعا أبرويز رجُلا من النصارى، كان جدُّه قد أنعمَ على جدّ النصرانىّ واستنقذه من القتل أيامَ قتل مانِى، وكان من أصحابه الذين استجابوا له. فقال له أبرويز: قد عَلِمْتَ ماتقدّم من أيادينا عندكم، أهلَ البيت قديمًا وحديثًا. قال: أجَلْ أيها الملك! وإنّى لشاكرٌ ذلك لك ولآبائك. قال: فخُذْ هذه العصا وامضِ بها إلى شهرباز، فأْتِه فى قرار

(١) صـ: وغدراته.

(٢) أى اضطرب.

(٣) أى مهزولون مَرْضى. [والذى فى صـ: هزلا وضرا].

مَلك الروم، فادفعها إليه من يدك إلىٰ يده . وعَمِدْ إلىٰ عصًا مثقوبة، فادخَلَ فيها كتابًا صغيرًا منه الىٰ شهر براز: "أما بعدُ فإنى كتبتُ إليك كتابى هذا واستودعتُهُ العصا. فإذا جاءك، فخرِّق دار مملكة الروم، واقتُلْ المُقاتلة، واسْبِ الذُّرِّيَّة، وانْهَبِ الأموال، ولا تتركَنَّ عينًا تَطرِفُ ولا أُذُنا تسمَعُ ولا قَلْبًا يعى، إلّا كان لك فيه حُكْمٌ. واعلم أنى واثبٌ بملك الروم يوم كذا وكذا. فليكن هذا وقتَك الذى تعمَل فيه ما أَمَرْتُك." (١٥٧)

قال: وأمر للنصرانىِّ بمالٍ وجهَّزه، وقال: لا تُعَرِّجَنَّ علىٰ شئ ولا تُقيمَنَّ يومًا واحدًا. وإيّاك ثم إيّاك أنْ تدفع العصا إلّا إلىٰ شهر براز، من يدك إلىٰ يده!

ثم ودّعه ومضىٰ النَّصرانىُّ. فلما عَبَر النَّهروانَ، اتفق أنْ كانَ عُبورُه مع وقتِ ضربِ النواقيس. فسمِع قَرْعَ عشرةِ آلافِ ناقوسٍ أو أكثرَ. فانهملتْ عيناه وقال: بِئْس الرجُل أنا، إنْ أعَنْتُ علىٰ دينِ النصرانيّة وأطعْتُ أمرَ هذا الجبّار الظالم!

فأتىٰ باب مَلك الروم، فاستأذَن عليه، فأَذِنَ له. فأخبَره بقصة أبرويز حرفًا حرفًا. ثُمّ دفع إليه العصا، فأخذها ونظر فيها. ثم استخرجَ الكتاب منها فقُرِئَ عليه. فنخر، وقال: خدعنى شهر براز! ولئن وقعتْ عينى عليه، لأقتُلَنَّه!

وأَمَرَ فقُوِّضَتْ أبنيَتُه من ساعته، ونادىٰ فى الناس بالرحيل. وخرج ما يَلْوِى علىٰ أحدٍ.

ووجه أبرويزُ عينًا له يجيئه بخبره. فانصرف إليه فاخبره أنّ الملك قد مضىٰ ما يلتَفِتُ لَفْتَةً. فضحِك أبرويز، وقال: إنَّ كلمة واحدة هَزَمَتْ أربعمائة ألف لجليلٌ قَدْرُها ورفيعٌ ذِكْرُها![1] (١٥٨)

(١) والعرب تقول: أنفذُ من الرِّمْيَةِ، كلمةٌ خفيّةٌ. ("العقد الفريد" ج ١ ص ١٦٥)

خاتمة الكتاب

وإذ قد انتهينا إلى هذا الموضع من كتابنا هذا، وأخبرنا بأخلاق الملوك فى أنفسها، وما يجبُ على رعاياها لها، بقدر وُسع طاقتنا، فلنختم كتابنا هذا بذكر مَنْ بعثنا على نظمه، وكان مفتاحا لتأليفه وجمعه.

ولنقُلْ إنّا لم نرَ فى صَدر هذه الدولة المباركة العباسيّة ولا فى تاريخها وأيّامها إلى هذه الغاية فتًى اجتمعتْ له فضائلُ الملوك وآدابُها ومكارمُها ومناقبُها، فحازَ الولاءَ من هاشمٍ والخِصِّيصَى[1] من خُلفاء بنى العباس الطَّيِّبين، والتَّبَنِّى من المُعتصِم بالله وإخوته الأبرار من أئمة المؤمنين ووَرَثة خاتَمِ النبيِّينَ، عدا الأمير الفتحَ بنَ خاقانَ مَوْلى أميرِ المؤمنين.

فلْتهنِئْهُ هذه النِّعْمَةُ المُهداة! وبارِكَ له واهبها، وزاده إليها الدأَبَ عليها حتّى يبلغ به أرفعَ يَفاعِها وأسنى ذِرْوتها وأعلى درجاتها، فى طُولٍ من العُمر وسلامةٍ من عوادى الزمان وغِيَرِه ونَكَباته وعَثَراته! فإنه رحيم كريم!

فى آخر النسخة السلطانية ما نصُّه:

تمّ الكتاب المبارك بحمد الله تعالى وعونه وحسن توفيقه. والحمد لله وحده!

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا!

حسبنا الله ونعم الوكيل!

---

(١) أى الاختصاص بالتفضيل.